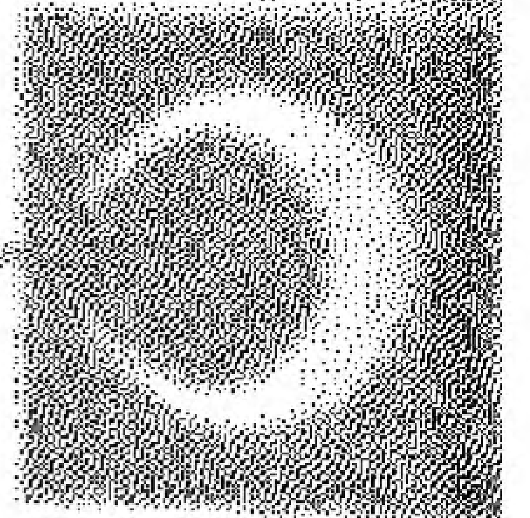
كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

سندباد في سيارة

دكتور حسين فوزي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعي

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٦٠ - جمادى الآخرة ١٣٩٢ أغسطس ١٩٧٢

No, 260 — Août 1972

مركز الادارة

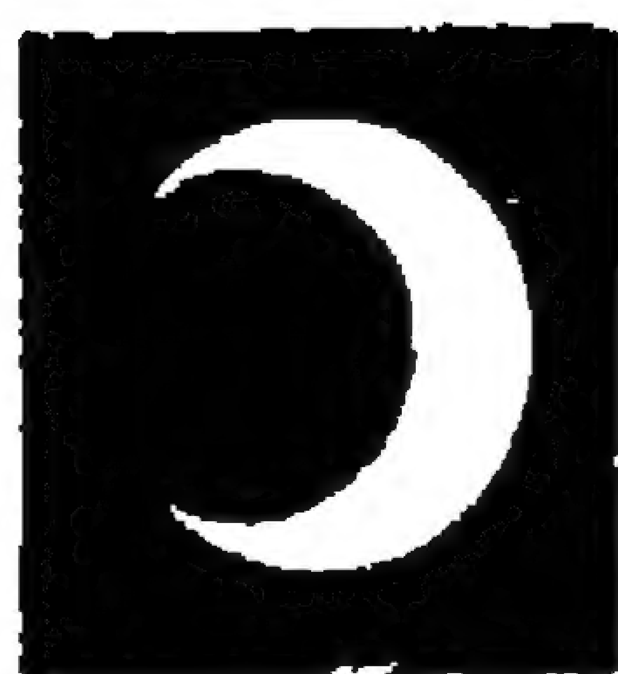
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربي والافريقى ١٠٠ قرش صاغ - فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية او ٢ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية - والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادي - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنان جمــال قطب

دكتور حسين فوزى

سندباد في سيارة

دار الهلال

تقديم

بلغنى أيها الملك السعيد ان كان فى زمن الخليفة هارون الرشيد بمدينة بغداد رجل يقال له : «السندباد الحمال » . تعب من مشاله ذات يوم شديد الحر ، فألقى به الى مصطبة عريضة بباب بيت عظيم « أمامه كنس ورش ، وهواء معتدل » حمل اليه عبيرا منعشا ، ونغم أوتار ، وتغريد أطيار ، يدعوه صاحب الدار : فاذا الحمال بحضرة رجل عظيم « وكزه الشيب فى عارضيه ، مليح الصورة ، عليه هيبة ووقار ، وعز وافتخار » .

يكرم العظيم وفادة الحمال، فاذا عرف بأنه السندباد قال له ان اسمك مثل اسمى ، فأنا « السندباد البحرى » والتفت الى من فى المجلس من الضيوف قائلا : « وما دامت الفرصة التى أتاحها لى أخى السندباد البرى قد سنحت ، فانى محدثكم بحديثى ، وما قاسيت من أهوال فى حياة المخاطر التى عشتها » .

ولقد دعانى السندباد البحرى الى مجلسه ؛ عندما اتاحت لى صروف الزمان أن أركب البحار التى ركبها ، دون معاناة المخاطر التى عاشها .. واستأذنته فى ان تحمل كتبى اسمه الكريم

رحلة الربيع وبعض هذا الصيف سندبادية من نوع

عجيب وجديد على ، لم اركب فيها البحر الا ساعة زمانية ، عبرت فيها مضيق جبل طارق من مدينة الجزيرة (الخثيراس) فى معدية انتقلت اليها أسوق سيارة عند طرف الاندلس الجنوبى ، وغادرتها خلف عجلة القيادة الى طرف المغرب الشمالى عند سبتة .

رحلة بدأت فى باريس يوم ١٧ مايو عام ١٩٧١ ، وانتهت فى القاهرة ، يوم أول يولية .. ستة أسابيع قطعت فيها السيارة الهمام عشرة آلاف كيلومتر وبضعة مئات ، نهبا فى الارض ، وقطعتها نهبا للقلق المستحوذ على خشية خطأ فى التقدير ، وانكسار فى عصا التسيار ، والتيه ، وانقطاع أسباب العيش حيث لا مجيب ولا نصير . أقضى هزيعا من الليل أعد للمرحلة التالية تحديدا للمسافات واختيارا للمأوى ، واطلاعا مسبقا على ما يقدر لى مشاهدته فى الظعن والاقامة .

رحلة القلق ، لا اتراسل مع قريب أو صديق ، ولا اتوقع رسالة من احد ، بحكم الانتقال الدائم ، والتركيز على خط السير .

رحلة لا تسمح بالتامل الهادىء فى الطبيعة السخية بأشكالها والوانها ، ارضها وتضاريسها ، وسمائها وانهارها ، وجبالها وودبانها .. وصحاريها .. حقت على فيها قولة « ينهب الارض نهبا » !

الا ان أهجع فى مكان ليلة أو أكثر ، فأعود الى المشى والتسكع ، والمشاهدة الهادئة .. وحدث هذا فى انجوليم وبايون بفرنسا ، وسان سباستيان ومدريد وقرطبة واشبيليه وغرناطة بأسبانيا ، ومراكش والرباط وفاس ومكناس بالمغرب ووهران وتلمسان والجزائر وقسنطينة وعنابة بالجزائر ، وتونس والقيروان وسوسة وصفاقس وقابس بتونس ، وطرابلس وبنغازى وطبرق بليبيا .

تتدافع الرؤى وتختلط اسماء الفنـــادق مع اسماء مدنها ، الا أشكالها ؛ اذ يكفى أن اتذكر شكل الفنـدق والمنظر من نافذة حجرتى حتى ارد اسمه الى مكانه .
رحلة بلا مذكرات ؛ مثل الـكثير من رحـلاتى التى اشغل فيها بما لا يسمح بتدوين أشياء عنها تفقد قيمتها مع الزمن . أما ما تختزنه الذاكرة فهو الجدير بالكتابة عنه فيما بعد ، مستعينا بالـكتب والخرائط والصور .. وأوراق حساب الفنادق !

فى رحلتى هذه نزل واحد لا يحمل اسما ولا رسما ، بدائى متواضع ، قيمته عندى أن وجدت فيه المـأوى والمـأكل ، وقد سـمح لى بقطع رحلة الالف كيلومتر وزيادة ما بين طرابلس وبنغازى . ولقـد صـورت لى هذه الآلاف (خطـأ) وكأنها غفل من كل شيء ، حتى المـاء والنفط ، مما اضطرنى قبـل مغادرة بلاد تونس الى اقتناء صفيحتين (جيرى كان) ، احتياطا لم يكن له داع ولا لزوم ، بفضل ذلك النزل البسيـط .

صـعدت فى جبـال شـامخة ، ونزلت الى وديان سحيقة . ومسـالك الجبال واحدة فى تعاريجها صعدا وهبوطا .. تدور لها رأس السائق دوخا ، ويبلغ حرصه فيها الاحتفاظ بما لا يقل عن شبر بين السيارة الطالعة والنازلة ، وبخاصة فى المنحنيات ، التى لا ينتهى أمرها الا عندما تغادر السفح الى المنبسط . ولا يقف الامر عند جبل واحد ، فما تلبث حتى تصعد فى المرتفع التالى، وما يليه .

صاحبت بحرنا الابيض على مســتواه ، ومن أعالى السفوح . وسقت على أطراف الهوات السحيقــة فى طرق متآكلة تحذرك لافتاتها من الانهيــار اذا انحرفت الى الشفا ، ثم تسلمك لمسالك عجيبة ، أنفاق وممرات

ذات أسقف من صخور بارزة معلقة تنبهك اللافتات الى أنك تعبر تحت « مساقط أحجار » (ما أصدق قول القصاص الشعبى « جبال تشيلك وجبال تحطك »)

وعندما اتخذت طريقى فى الجزائر من عنابة الى سوق الاحراز ، متجها الى حدود تونس وسط جبال وتلال جرداء ، حتى « غار الدماء » ، اندفعت كالسيل العرم ، لا ألوى على شيء ، وكأنى اتشفى من عذاب المسالك « الزجزاجية » ، ذات المنحنيات التى تشبه بدبوس الشعر ، حتى بلغت «مجاز الباب» ، فتونس الخضراء .

وسلمتنى طرق تونس المنبسطة الى طرق ليبيا الفسيحة ، الذاهبة على مدد الشوف دون انحراف ، لا تعطلك فيها حيوانات المراعى ، ولا صريخ ابن يومين .

فاذا بي أنطلق من خطر الاصطدام والهوى فوق المفاوز المتشابكة ، الى خطر السرعات التى لم أبلغها من قبل أبدا . والسرعة فوق الطرق الليبية توقظك من ملال الطريق السوى الممتد الى مئات ومئات من الفراسخ . سرعات لا تكاد تحس بها فى ذلك الفضاء الواسع . فاذا أدركت تعديك المائة واربعين كيلو مترا الى المائة والستين فالسبعين ، اخذت الرهبة بتلابيب نفسك ، اذ تشعر بأن احتكامك بالآلة المخيفة لم يعد كما كان حول المائة .. فتستعيد هدوءك اذ تستقر حوالى المائة والثلاثين ...

أما بعد اجتياز نقطة الحدود الليبية عند « مساعد » والإتجاه الى السلوم ، فأن الطريق غير السوية تفرض عليك السير بحذر بالغ ،وبطء قاس، لتواصل السير مداولة بين الطريق الاصلية ، وما يعتورها من تحويلات خارج الخط ، تهددك فيها الحجارة والحصى والرمال والاتربة

بالانفراس الا ان تتلمس طريقك فوق « مدق » سيارات سابقة .

يالله ! كيف يتأتى أن تحمينا شر الطرق من السرعة الخطيرة ، فوق المسالك المنبسطة ، المستوية التي عرفت في فرنسا واسبانيا والشمال الافريقي ـ الا فوق الجبال !

وما أعجب طرق الحضارة تلك ! .. تجتازها بخريطة وبغير خريطة ، بمعرفة مسبقة من كتب الادلاء ، وبدون معرفة ، وكانت خرائطي وأدلائي كافية طوال العشرة آلاف كيلومتر ، فيما عدا الجزائر ، التي بحثت عن خرائط لها خارج الجزائر وداخلها ، فلم أوفق الى شيء منها !

علامات الطرق واضحة ، وأخطارها يشار اليها بالرمز والكتابة . فلا ظلام فيها ولا تغريب ، ولا تيه. انطلق على باب الله دون وجل ، فاللافتات كفيلة بحمايتك من الخطأ والخطر .. على الا تهمل قراءة اية واحدة منها .

لم يحدث لي أن تهت في العراء .. وأكثر ما ضايقني التيه في المدن ، ارسم طريقي على خرائطها ، واودعها ذاكرتي .. واذا بطرق « الاتجاه الواحد » تمحو معالم استعدادي ، فأدور في حلقة لا أخرج منها الا بسؤال أهل المروءة .

ولقد عرفت في هؤلاء من يتحاشون الاقرار بأنهم لا يعرفون ، فيدلونك بطريقة « كل شن كان » وحدث أن سألت شخصين متجاورين فقال الواحد يمنة ، وقال الآخر يسرة ، وغادرتهما يتجادلان : خلاصا بنفسي من الميمنة والميسرة !

هذا كل ما عرفت من حوادث .. لم يصب السيارة

عطب ولا خدش ، لا بفضل قيادتى ، ولكن بفضل اتقان القيادة عند كافة السائقين بكل تلك البلاد ، كانوا هم الذين يتجنبون خطئى !

أهم حادث وقع لى كان فى حاضرة من الشمال الافريقى .. نزلت من فندق الضاحية الى جادة فسيحة هى أوسع وأطول شارع فى عاصمة البلاد . وركنت السيارة وسط رتل طويل من سيارات تقف على صفى طوار يتوسط الشارع العريض . كان ذلك فى الصباح التالى لوصولى مساء الى العاصمة ، وضاحيتها الجميلة على شاطئ البحر .

دلفت أسعى الى مصرف لتحويل النقد ، فاذا مكاتب الكامبيو تقفل قبل الظهر بساعة . فأخذت أتجول مشيا فى أسواق المدينة الآسرة ، استعيد ذكريات شبابى فيها ، بين جاداتها وبطحاواتها ومساجدها الاثرية التى جمعت بين فن المشارقة والمغاربة .

وعندما عدت الى الجادة الفسيحة ، وجدت طوارها خاليا تماما من السيارات التى كانت تزحمه فى الصباح .. حتى السيارة التى تركتها هناك .. اختفت بقدرة قادر ! ..

لم أفكر أبدا فى ان تكون قد سرقت .. وحسبت لاول وهلة اننى أخطأت تحديد موقعها ، فقطعت الشارع ريحة وجيئة حتى تأكدت من اختفاء السيارة فعلا ! ..

وتذكرت ان محافظا للقاهرة « تعازم » ذات مرة ، وامر برفع كل سيارة تخالف المرابط المقررة ، ونقلها الى قلم المرور ، وتغريم سائقها خمسة جنيهات . فأسرعت الى واحد من الاهالى أسأله : هل يحدث عندكم أن تحمل الشرطة سيارة مقفلة مفرملة باحكام ؟

وقال لى بالفرنسية : امال ! .. اذهب وابحث عن سيارتك فى حوش قلم المرور . واستعمل كلمة أضحكتنى هى التى تطلق على معتقل الكلاب السائمة ! ..

مشيت فى حمارة القيظ طويلا ، فليس معى من نقد البلاد مليم واحد ، حتى بلغت شفخانة المرور ، فاذا السيارة هناك ، نقلت « شـــيلة بيلة » ، ووقفت كالعروس كسيفة البال وسط السيارات الشضلية التى تعاقب على مخالفتها الاوامر .

قادونى الى الوكل بأمر المحابيس.. فاعتذرت بطريقة لا تخلو من العتاب المستتر : وصلت ياسيدى مساء الامس من خارج بلادكم ، ونزلت الى عاصمتكم هذا الصباح ، وأوقفت السيارة وسط صفين طويلين من اخدانها ، وواضح لكم من لوحتها الدولية ان صاحبها سائح ، عابر سبيل.. وفى بلدى يعامل مرور الاسكندرية سيارات القاهرة والاقاليم برفق .

كان الرجل لطيف المعشر ، فبرأ السيارة ، وشطب رقمها من جدول المخالفات . ولو لم يفعل لدخلنا فى اشكال خلو الجيب من نقد البلد المضياف الكريم .. فى ساعة نحس البنوك ! ..

ودرس كبير وعيته من المرور باثنى عشر جمرك وشرطة حدود ، لا علاقة له بتفتيش الامتعة ، أو عدم تفتيشها . ولا اذكر ان فتشت امتعتى الا فى الجمرك الاسبانى عند الحدود الفرنسية .. أمرت بفتح حقيبة كبيرة .. قلب الرجل محتوياتها ، فاكتشف مجلدا من خمس مجلدات فى سيرة فولفجانج اماديوس موزار .. نظر الى زميله مبتسما ، وانزل بيده غطاء الحقيبة ، وحيانى فى ادب بالغ ! ..

قضيت فى بعض جمارك الشمال الافريقى ما لا يقل

عن ساعتين أملأ فى أوراق واستمارات أختمها من شباك الى شباك .. فما هو الدرس الذى وعيت ؟ ..

البلد الذى تشغلك جماركه بملء استمارات وبطاقات وامضاءات وبصمات وأختام ، يعنى انه قليـل الادراك لاهمية السياحة حتى لو قال بلسانه غير ذلك ، وأقسم ان لم يستغرق دخولى وخروجى من بلاد غربى أوربا وشماليها أكثر من ربع ساعة ! ..

لم يخفف هم العطل الكبير فى بلاد الشمال الافريقى سوى حسن المعاملة واشعارى من قبل السلطات بأنى أخ وضيف . ومثل هـذا ، وخير من هـذا ما رأيت وأشهد ، من أمانة ولطف وانسانية ، والاحساس بأننى اعود الى بلدى الحبيب . . . فى تلك المنطقة النائية عند الحدود المصرية الليبية ، وقد أصبحت نموذجا فى الدقة والحرص على أداء الواجب فى نزاهة ، وحسـن ادراك الظروف . جزاهم الله عنا نحن السفار الابرياء كل خير .. فبمثل أولئك الرجال نتوقع اصلاح الحال ، وحسن المآل ، آمين ..

مصر ..
واسطة العقد بين المشارقة والمغاربة

فى حياة هذا المسافر مفارقة بين ما تعلمه فى المدرسة ، وما خبره فى رحلاته .. عرف فى المدرسة ، والاطلاع العام . المشرق الاسلامى أكثر من المغرب .. وكان الموكلين ببرامج التعليم فى زمانى وقفوا عند السلوم .. وطبيعى أن يتجه المغاربه والمشارقة الى ارض الوحى والرسالة والخلافه ..

شاءت المقادير أن تبدأ التجربة الحية لهذا المسافر فى المجموعة العربية بالمغرب ، قبل المشرق .. عندما سافرت منذ نيف وأربعين عاما من باريس الى تونس ، لاتابع بحثا علميا بمعهد «سلامبو» الاقيانوغرافى بضاحية تونس .. بقيت هناك شهرا كاملا أعمل مع فرنسيين ، وأسكن فى نزل فرنسى بالضاحية .. وكنت أنزل الى تونس الخضراء فى أوقات فراغى للتجوال فى المدينة الآسرة ، والجلوس الى وراق أمام جامع الزيتونة .. وتناول الطعام على مقربة من ذلك المكان .. وقد أزور متحف قصر « الباردو » ، فى الناحية الاخرى من ارباض المدينة ..

واذا لم يسعفنى وقت الفراغ ، كنت اكتفى بالتجوال فيما بين ضاحية سلامبو وقرطاج لأزور آثار البونيقيين ، ولم يبق منها الا القليل .. بعض المدافن ، ومعبد .زبة

الفينيقيين « تانيت » وربهم « بعــل حمـون » وآثار الرومان وقد انتهوا الى القضاء على قرطاجة ، كخاتمة للحروب البونيقية بعد أن درج كاتون القديم فى مجلس شيوخ روما على تكرار تحريضه : « مهما كان الامر ففى ظنى يجب تدمير قرطاجة (كارتاجينم اسى ديلندم) » .

واعرج على قرية سيدى أبو سعيد أجمل ما عرفت من القرى تنسيقا وموقعا وبساطة ونظافة ..

فى نهاية اقامتى بسـلامبو ، سـافرت الى القيروان مدينة عقبة بن نافع الفهرى فاتح المغرب ، أزور جامعها الـكبير ، وما حوله من مساجد ، أذكر منهـا المسجد ذا الثلاثة البيبان ، ومسجد أبى زمعة البلوى .

ثم عبرت الى الجزائر لاقضى فيها بضعة أيام قبـل العودة الى معملى بالسوربون . وفى الجزائر صـدمتنى تجربة الاستعمار الفرنسى فى عاصـمة من أبهى عواصم المغرب . اكتفيت منهـا بالصـعود الى « القصبـة » للاحساس بأهل البلاد الاصالى ، ولـكى أطل على بحرنا من الاعالى . وقد كرهت أن لا أرى لاهـل البـلاد فى عاصمتهم التاريخية أثرا بين المستعمرين . فالمسـجد الكبير فى المدينة المنخفضة قد تحـول الى غير ما أنشىء له ، وغير ذلك من مظاهر عاصـمة بمبانيها الفخمـة وسكانها ، أقرب الى أن تكون مدينة فرنسية من مدن الجنوب .

وغادرت الجزائر بعد يوم وليلة عندما لم أطق البقاء فى ذلك الجو الاستعمارى الذريع .

وكنت قد عشت فى تونس تجربة استعمارية تركت فى نفسى جرحا عميقا ، عرفت فى زمانها باسم « المؤتمر الافخارستى » شاهدت الرسول الـكاثوليكى يستقبله المقيم العام الفرنسى (الحاكم بأمر الجمهورية الفرنسية

ألعلمانية ا) استقبـال الفاتحين .. والسفن الداخلة ميناء تونس تحمل وفود المؤتمر تهزم بالتراتيل اللاتينية، وقد جاءت لتشيـد بذكرى القـديس الصليبى لويس التاسع أسير بيت ابن لقمان بالمنصوره ، والمتوفى بالوباء فى تونس .

ورايت الوفود تقف بتمثال الكاردينـال لافيجرى المستعمر الدينى منصوبا قبل باب تونس الخضراء رافعا الصليب .

كما ذكرت وأنا بالجزائر واقعة بسـيطة ، حـدثت بباريس ، عندما تداولت بضع كلمات مع طالبة بمدرسة النورمال للموسـيقى ونحن ننتظر مجيء الاسـتاذ .. عرفت منها بانها « جزائريه » فظننتها عربيـة او قبلية مسلمة ، وأجابتنى بالنفى ، وانها فرنسيه أبا عن جد، مولودة بالجزائر .. سألتها : اذا كنت جزائرية ، فكيف تصفين أهل البـلاد الاصالى ؟ قالت : اوه ! .. انهم العرب .

استعيد هـذه الذكريات الواخزة لاوضح واحدا من حوافز رحلتى الاخيره عبر الشـمال الافريقى ، وهو العوده الى ما تصفه اللغه الرومانتيكية بمراتع الشباب.

أزيح تمثال لافيجرى ، وعاد مسجد الجزائر الـكبير .. مسجدا .

حققت تونس بعد استقلالها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية العجب العجاب اتساعا ، وعمرانا وحضارة هى الصورة الحية لبلاد تعود الى أهلهـا ، وتنتظم توا فى سلك الحضارة الحديثة .

فهذا المعهد الاقيانوغرافى فى سلامبو اعود اليه بعـد اربعين عاما وأزوره بصحبة العاملين فيه من علماء البحر التونسـيين ، يواصلون بحوثهم لانماء الثروة المائية ،

فى جد وكفاية .

والمساجد الاثرية ترمم وتصلح فى تونس والقيروان وغيرها . والآثار والحفائر تتابع فى نشـاط ، وتنشـا المتاحف المحلية تعرض ما تخرجه بطون الارض .

فالحضارة فى تونس تنتهج السـبيل ذا الشعبتين : الاحتفاظ بترات الماضى : بونيقيا او رومانيا أو اسلاميا. والسير حثيثا فى مدارج الحضاره المعاصرة مع الحفاظ على اسلوب مميز فى البناء ، وفى الموسيقى والغناء ، يجمع بين المـاضى والحاضر . واستطاعت البـلاد أن تتحول باثارها وطرفاتها وشـطئـانها وجزرها الى بلد سياحى من الدرجه الاولى ، يؤمه الوافـدون من اوربا وامريكا يمتعون الجسـد والروح بما يقـدمه العمران الحديث من فنادق وشواطىء ومهرجانات ثقافية للسينما والمسرح والموسيقى .. وما يقدمه التـاريخ العريق من اثار العصور السـالفة ، وعصر الفتوح الاسلاميه ، فنا وفكرا وأدبا .

كان ما رأيت فى عودتى الى الشمال الافريقى صورة حية « لعودة الروح » فى لغة توفيق الحكيم .

وأمسك عما قد يساء فهمه اذا ما حاولت التعبير عما تجيش به نفسى من أسى على بعض مآخذ هذه العودة .

سمعت شـخصين من عامة الشعب فى بلد من بلاد الشمال الافريقى ، أشبه بمثلهما من حى باب سدرة أو باب الشعرية ، فتى وفتاة يتبادلان حديثا خاصـا .. بالفرنسية ، وهذا فى رأيى انكى وأقسى من أن يضـطر الـكاتب هناك الى تأليف قصصه وتمثيلياته بتلك اللغة. فلا أقل هنا من ان اولئك الكتاب يدافعون عن قوميتهم ، ويقدمون صورا فنية واجتماعية وتاريخيـــة لاهلهم وعشيرتهم يطالعها العالم فى لغة أوسع انتشارا وأسهل

منالا من غيرها .
اما أن تتحدث بنت البلد زينب ، الى قريبها أو خطيبها محمد السلامى .. بالفرنسية ، فهذا مما يثور له الضمير القومى . واللائمة فى هذا تقع على المستعمر الحديث الذى قارب فى عتوه واستثثاره التشبه بما صنع مستعمرو العصور الخالية بشعوب الآزتك والانكا والهنود الحمر

والحافز الثانى ، والاهم لرحلتى الخاطفة الطويلة عبر اسبانيا والشمال الافريقى هو التقصى العملى للصلات الحضارية بين الدول الاسلامية فى الاندلس وبين بلاد المغرب .
نما هذا الحافز فى نفسى عندما زرت المغرب لاول مرة عام ١٩٥٨ ، فى مؤتمر للدول العربية دعت اليه حكومة المغرب ونظمته اليونسكو . ودعانا صديقنا الكبير الاستاذ محمد الفاسى وزير المعارف فى ذلك الوقت ، ورئيس المؤتمر ، الى حفل موسيقى غنائى كبير بمدينة فاس شاركت فيه جوقات من تطوان وطنجة وفاس والرباط . سمعنا فيه أدوارا نموذجية ، وموشحات قديمة ، قيل انها تمثل البواقى الحية من موسيقى الاندلس .
لم أكن زرت الاندلس حتى ذلك الوقت ، وكانت معارفى عنها ضئيلة لا تتعدى حكاية عبور طارق بن زياد المضيق الذى يحمل اسمه ، وحكاية تدمير سفنه . ولم أقبلها على علاتها ولا صدقت ان طارقا البربرى هو صاحب الخطبة التى حفظناها ، وتبارينا فى القائها بالطريقة التمثيلية الفجة .

وقد تمتد معارفى (؟) الى ما قرأناه جميعا . ورأينا صوره عن قصر الحمراء ، ونهاية أبى عبد الله بخروجه

من ملـكه بغرناطة باكيا . فاذا بأمه تعنفـه بكلمة من أقصى ما عرف التاريخ . قرأت تاريخ صقر قريش عبد الرحمن الداخل وشـذرات عن عبد الرحمن النـاصر والطوائف والمرابطين والموحدين ..

أما تاريخ المغرب ذاته ، وحضارته ، وأسره الحاكمة فقـد سمعت بها فى تلك الزيارة الاولى ، امام مدافن المرينيين والسعديين . وهناك قيـل لى بأن حضـارة الاندلس نبعت من حضـارة المغرب ، وان المرابطـين والموحدين أقاموا دولهم بالمغرب ، وعبـروا المضـيق استجابة لمعونة الاندلسيين حين ضـيق ملوك قشتالة واراجون عليهم الخناق فى عمليات الاسترداد . فأنجدوهم واستقروا هناك فاتحين جدا .

كما علمت ان تحرير الاسبـان لبـلادهم نهـائيا ، واضطهاد المسلمين واليهود دفع بهؤلاء الى عبـور بحر الزقاق الى المغرب حيث استقروا نهائيا ، وما فتئت أسر كثيرة بالمغرب تحمل أسماء أولئك اللاجئين .

الحافز الاكبر للرحلة الطويلة عبر اسبانيا والشمال الافريقى كان اذن : متـابعة الوحـدة الحضـارية بين الاندلس والمغرب الاقصى ..

وما من شك فى ان ذروة هذه الرحلة حول حضارات عزيزة على قلب المشارقة والمغاربة تحققت فى غرناطة ، وقد اختار لى الحظ أن أقيم على قيد خطوات من قصر الحمراء وحصونه ، والمصيف الملـكى فى « الخنراليفة » أو ما يعرف « بجنة العريف » .

« وعجيب الزمان غير عجيب » فى قول ابن الرومى : أن أجمع فى خلال بضعة أشهر رحلة الى الفن الاسلامى المغولى بشمالى الهند .. أى ما يكاد يمثل أقصى الفن

الاسلامي شرقا (*) والى الفن الاسلامي بالمغرب والاندلس فيما هو فعلا أقصى امتداد لهذا الفن غربا وشمالا ..

لقد عبر طارق بن زياد الى الاندلس ، فيما يقال ، من طنجة الى الجزيرة ؛ وكان بزيارتي لأسبانيا من الشمال الى الجنوب ؛ وعبوري الى المغرب من الجزيرة الى سبته ، سلكت طريق الفتح والخروج لدولة الاسلام في الاندلس .

ولعلي أستطيع في هذه المجالات تسجيل انطباعاتي من آثار تلك الحضارة الزاهرة بعد الاطلاع على كتب أعلامنا من « المتغربين » المصريين : المرحوم عبد الحميد العبادي ، والاساتذة محمد عبد الله عنان ، وحسين مؤنس والسيد عبد العزيز سالم وعبد العزيز الاهواني ومختار العبادي وغيرهم ممن أتحفوا وأثروا المكتبة العربية بمجموعة قيمة حقا من الدراسات المتخصصة مختصرات ومطولات ومترجمات .

(*) سنة ١٩٧٠ . انظر كتاب « سندباد في هندباد »

ولا غالب إلا الله

« يقدم الينا التاريخ الاندلسى في مراحله الاولى ، صفحات باهرات من ضروب المجد الحربي والسياسي ، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان ، ولكنه يقدم الينا في مراحله الاخيرة ، صفحات مشجية مؤثرة ، من تقلب الجدود وتعاقب المدن ، والانحدار الى معترك الهزيمة والذلة ...

ولكن الصراع الطويل المضطرم الذى خاضته الامة الاسلامية في الاندلس ، قبل أن تستسلم الى قدرها المحتوم ، يبدو صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر ، قلما يقدمها الينا تاريخ أمة من الأمم ...

محمد عبد الله عنان :
نهاية الاندلس

« ارتفاع شأو الحضارة الاسلامية وتدهورها واحد من المعالم الكبرى فى التاريخ .

ولمدى خمسة قرون ، من سنة ٧٠٠ م حتى سنة ١٢٠٠ م ،

قاد الاسلام العالم سؤددا ، ونظاما ، واتساع ملك ،

وأسلوبا فى الحياة رقيقا مهذبا .

كما قاده في نماذج المعيشة ومستوياتها ، وفى التشريعات

الانسانية الحانية ، والتسامح الدينى ، وفى مجالات الادب

وبحوثه ، وميادين العلوم ، والطب ، والفلسفة » .

ول ديورانت :
«عصر الايمان»

ما أشبه اليوم ، فوق مرتفعات قصر « الحمراء » وقصبته ، تطل على غرناطة ، بالبارحة وأنا مقبل على مدفن « تاج محل » درة أجرا بشمال الهند .. تشوق

الى الرؤية الواقعة لاثر عرفته منـذ مطالع الصبا ، بالرسم والصورة والوصف والصيت . وتوجس أن ينتقص الواقع من روعة التصور ..

وكان الواقع فى الحالين مؤيدا لحقيقة من حقائق الفن .. وهو ان لا خطر من الواقع عندما يبلغ الاثر المعمارى قمة نمطه وأسلوبه ، فيكون النموذج الارفع والمثال الاعلى لفن بعينه .

حقيقة تبينتها ووعيتها فى مواجهة « البارتينون » فوق اكروبول أثينا ، وكاتدرائية « شارتر » فى الجنوب الغربى من باريس ، و « تاج محل » بالهند ، وقصر « الحمراء » بالاندلس .

فى شبابى الاول كنت أتقدم الى العمل الفنى الكبير متهيبا ، متفتح أبواب الحماس .. مقدما .. وفى شيخوختى أتصنع الهدوء وعدم المبالاة ، فأكذب على نفسى ، وانما أتلمس وسيلة خارجة عنى ، تعيننى على لقاء عقلى ، يسبق العناق الفنى .

فقد هدأت الممارسة العلمية أجيج الرومانتيكية ، وأصبح العقل ، على الرغم من حمى الاحساس ، هو المسيطر وحده . فاذا انفجر الاحساس وتغلب بذاته ، كان لى فى الانفجار عذر ودلالة .

ولجت مع حشد من السائحين أبواب « الحمراء » ، ومررنا بالقصر الدائرى النشاز الذى أقامه شارلكان مزاحما مناكفا لقصر بنى الاحمر ، مع انه القائل يوم أطل من طنف « الحمراء » على الرياض والمياه الجارية : « ما أتعس من شاء له حظه العاثر فقدان كل هذا » ، مشيرا الى أبى عبد الله آخر ملوك غرناطة .

واذا بشحط عتل امريكى يضرب بجماع يديه بابا موصدا من أبواب قصر شارلكان ، ويرفع عقيرته

بالاحتجاج ، ونسعى لتهدئة ثورته ، فيأنس الى ، ويترك الباب ليمشى الى جانبى ، يشكو الاستغلال الفاضح للسياح ، ويخرج بطاقة دخول ليؤكد لى احتواءها على اذن بزيارة قصر شارلكان ، ويقول : هؤلاء الناس لا يقدرون ما يتكلفه السائح من مال وجهد وعناء ليشهد آثارهم . انني حفيت مشيا لازور هذه الروائع ..

قاطعته : ولكنك تطرق باب قصر على هامش ماجئنا لرؤياه ، ولا قيمة ..

واستمر فى كلامه دون أن يعير انتباها الى ما أقول :

ـ حفيت مشيا .. أنظر :

وخلع حذاءه ليشهدنى على خرق واسع يطل كالطاقة المستديرة ، من وسط نعله ..

كتمت ضحكى ، ورثيت لرجل يهذى ، تسلمه الحراس والناس ، ولا أدرى ما صنعوا به فلم أره خلال تجوالى بقاعات « الحمراء » . . .

وعبرت ذاكرتى واقعة بالامم المتحدة ، اشتد فيها غضب رجل كان عظيما فى قومه ، فخلع حذاءه ، وأخذ يضرب به على المنصة فى ايقاعات عنيفة تصاحب خطابه.

وقبل أن أتجه بكافة حواسى الى تأمل «تاج محل» ، استوقفنى فى الحديقة قرد ظريف ، حييته بالانجليزية : هالو ياكابتن ! .. ويبدو انه استقبل الرتبة راضيا !

لا تتوقع منى ان أفصح عن انفعالى ، أو أن أستعير ثرثرة الادلاء ، وجلها حكايات وأساطير لا تترك لك متنفسا ولا فسحة تأمل .

ومن ذا الذى لا يعرف قصر « الحمراء » أبهاءه ، وعرصاته المكشوفة ، وانسياب الماء من أفواه سباعه ، وخريره فى القنوات . ومن لم ير صور سقوفه وحلياتها ، وتيجان عيدانه ، وزخارف أركانه وحيطانه

.. وكلنا ، حيث نشر الفن الاســـلامي آثاره شرقا وغربا ، متمرسون بالتنويعات الموسيقية للحن واحـد يتألف من أقواس ، وخطوط ، واســـتلاكتيتات ، وسيقان نبات بأزهاره ، ولوحات الخط العربى بأشكاله ، تقرأ بسهولة فى حديثها ، وبصعوبة فى قديمها .

وقصر « الحمراء » يجمع بين عمارة وظيفية منطقية فى ابراجه العارية ، وأسواره ، وبين زخارف حيطـانه وعمدانه وقبابه وأسقفه ، مقابلة فنية ومعارضـة بين عمارتين : الذكر والانثى .

كان خاتمة ساحرة للفن الاندلسي ، فن الغروب ، فى عصر ينذر بنهاية الدولة الاسلامية الزهراء ، تقوضت دعائمها ، وانتزع الاسبان أوراقها كالخرشوفة ، بقوة الارادة والتماسك والمثابرة فى مقابل خلافات الاندلسيين عربا يمنيين وشـواما وبربرا وموالى ، وتطـاحنهم ، وطلابهم العون على أهلهم ، وبنى جلدتهم ، باستعداء عدوهم المتربص بهم ، يضرب بعضهم بالبعض ، ويضيف حزازاتهم القبلية ، وأطماعهم الملـكية ، الى أسلحتـه المدمرة ..

لقـد استطاع بنو « الاحمر » تأجيـل النهـاية ، واستمهال القضاء المحتوم زهاء مائتين وخمسين عاما. ودفع رأس الاسرة محمد بن يوسف.. بن نصر بن قيس الخزرجى ، ثمن ذلك استكانة وخضوعا للعدو ، أو كما يقول الاستاذ محمد عبد الله عنان :

« وعاون ابن الاحمر النصارى فى الاستيلاء على ثغر قادس ، وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الارض الاسلامية الواقعة غربى ولاية الاندلس ، وأخذت رقعة الدولة الاسلامية تنكمش بسرعة مروعة .. وكان موقف ابن الاحمر من هذه الحوادث موقفا شاذا مؤلما.،

ولو انه كان يقبل هــذا الوضع المؤلم انقاذا لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد . . . وهكذا فقدت الاندلس معظم قواعدها التالدة في بحر ثلاثين عاما فى وابل مروع من الاحداث والمحن ، واستحال الوطن الاندلسي الذى كان قبل قرن فقط ، يشغل نصف الجزيرة الاسبانية ، الى رقعة متواضعة هى مملكة غرناطة .. ونظم شاعر العصر أبو الطيب صالح بن شريف الرندى مرثيته الشهيرة :

لكل شيء اذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش انسان
هى الامور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان

... ...

. ...

اعندكم نبأ من أهل اندلس
فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
أسرى وقتلى فما يهتز انسان

***

قضيت فى قصر « الحمراء » وأبراجه وسوره ، اليوم بطوله ، ويوما ثانيا ، ثم ثالثا فى « جنة العريف » ، وكأننى انقب عن كنوز مخبوءة تحت الارض كما يجىء فى أساطير وروايات الاسبان الى عهد قريب .

ولا أحسب ان فن « الحمراء » ، هو الذى جذبنى وحده الى ذلك الاثر العظيم . فلو اننى لبثت فى أجرا أكثر من يوم ، لما وجدت فى نفسى دافعا للعودة الى « تاج محل » .

ولكن فى فن « الحمراء » ، وفى لون حجارتها ،

وفى موضعها فوق الهضبة ، وفى ابراجها السامقة العارية ، وفى رياضها ، ومغانى « جنة العريف » ، سحرا خفيا ، ليس مصدره الانفعال الفنى وحده ...

انما أساسه ـ بعد تعمق التحليل لاحساسى ـ هو « حركة التاريخ » ، وكأننى أراها قبل حدوثها ، نذرا رهيبة باقتراب النهاية المفجعة .

و « حركة التاريخ » كلمة كبيرة . فلنتواضع ، ولنعد الى الشعر العربى القديم :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

أجل ، هو ذاك : الجذور الشعرية فى نفوسنا ، تأصلت فى البكاء على الدمن والاطلال . أليست هذه مأساة التاريخ المصرى بطوله فى قرار أرواحنا ؟

وحاشا أن تكون « الحمراء » طللا ، بله الدمن .. فما برحت عروس الزمان ، شاهدة على مجد غابر ، وسؤدد زائل ...

وللحفاظ على هذا الاثر الساحر تاريخ حافل . فقد هزته الزلازل فلم تدك سوى سقف واحد ، وبعد أن سكنه ملوك الاسبان عقب « الاسترداد » .. هجروه وأهملوه ففشاه النور واللصوص والمهربون. وفى هذا يقول المستشرق الاسبانى اميليو جارثيا جومث :

« الحمراء فى أكثرها هشة ، مما يجعلنا نتساءل : كيف استطاع الهش المعرض للزوال أن يبقى ؟ » .

وذهب فى تفسير ذلك مذاهب شتى مغلفة بفلسفة غامضة .. انما الذى أهدف اليه هو تحليل نظرتى الى « الحمراء » التى نجح الاسبان فى الحفاظ عليها بالاصلاح والترميم والتهذيب ، واحاطتها بكل ما يحفظ رونقها على الزمان .. أجل ! لسنا أمام بناء عتيق

يتداعي وسط العشير • وصدق جارثيا جومث حين قال :

« قصر الحمراء ليس أجمل القصور العربية القديمة فحسب ، ولكنه أكثرها احتفاظا برونقه ، وأقدمها ، بل هو الوحيد الباقي من العصر الوسيط » .

نظرتي الى « الحمراء » كانت نظرة الحسرة فى عينى امرىء القيس وهو يتأمل سقط اللوى بين الدخول وحومل . صعدت اليها تعتمل فى نفسى مأساة «خروج» أبى عبد الله ، سايل بنى نصر ، على وجهه ، بعد تسليم مفاتيحها الى الملك الاسبانى ، وتقول الرواية ان أبا عبد الله وقف على أكمة بعيدة يملى ناظره بآخر صورة لملكه ومقر ملكه ، فخنقته العبرات ، وأجهش بالبكاء . فصاحت به أمه عائشة الحرة : « فلتبك بكاء النساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنه دفاع الرجال» . وتعرف تلك الاكمة عند الاسبان باسم « زفرة المغربى الاخيرة » .

بهذا الشعور طالعت شعار بنى نصر يتكرر مئات المرات وسط زخارف قصر الحمراء « ولا غالب الا الله » . فى كافة الاوضاع والاشكال، فى دوائر وبيضاويات ومربعات ومستطيلات . لا تحوجك لاماته والفاته الغلابة الى تركيز بصر لتطالعه على القرب والبعد ، فى يسر الخط أو تعقيده ، وقد تطالع هنا وهناك فى تكرار مشابه : « العزة لله وحده » . « الملك لله وحده » ، فلا تضيق ذرعا بهذا الترداد .. أما الشعر فى مدح الامير ، أما آيات الذكر الحكيم ، فهى أقل مما كنت أتوقع .

واذا كان الشعار الغلاب يؤدى دوره الزخرفى أحسن الإداء ، في مقابلة فنية للتشابك « الارابسكي » ..

فقد تساءلت عن العلة فى تكراره ..

لان رنين هذا الشعار فى نفسي يتصل راسا بالنهاية المحزنه . هو عندى نذير بالمأساة .. اذ أطالعه وقد نمت فصولا . فى حين أن الآمر ببناء القصر ، أو بزخارفه لم يكشف عنه حجاب الغيب ..

كنت أشعر وسط هذا الجمال المتألق الفتان ، كلما قرات « ولا غالب الا الله » انى أجوب وسط المقابر ، اردد فى نفسى : « البقاء لله وحده » ... « البقاء لله وحده ، هو الحى القيوم » .

وربما اتخذ ترداد الشعار هذا المعنى : لقد فتحنا وظفرنا ، وحكمنا ، ونعمنا . أقمنا حضارة رفيعة واوربا فى غفلة من الزمان ، تعمه فى ظلام العصر الوسيط ، ننشر عليها ، ومن كل ركن فيها ، ضياء ونورا .. كانت لنا الغلبة فى الاولى ، وفى الثانية كانت الغلبة لعدونا .. « ولا غالب الا الله » !

ما أكثر ما بحثت فى صحائف التاريخ عن هذا الشعار النذير ، وكيف اختاره راس الاسرة محمد بن يوسف .. بن نصر بن قيس الخزرجى .

وكانت الاجابة على قيد صفحات لم أقرأها ، من كتاب كنت اتسلى بقصصه وحواديته عن قصر الحمراء دون أخذه مآخذ الجد ـ ألفه الكاتب الامريكى واشنطن ايرفنج (١٧٨٣ ـ ١٨٥٩) الذى عاش فى قاعات الحمراء زمانا ، وكان سفير الولايات المتحدة فى ثلاثينات القرن الماضى ، وألف كتابا عن «فتح غرناطة» ، وكتابا ثانيا عنوانه « قصص من قصر الحمراء » طالعته دون نظام ، يثقل على بأسلوبه المعسل الممطوط ، على الرغم من ملكة رومانتيكية فى السرد ، لا بأس بها أبدا ...

ثم تنبهت الى ان آخر فصلين من فصـــوله يتحولان عن الاساطير ، ليحدثنا الاول عن « محمد بن الاحمر » منشيء الحمراء ، والثاني عن ابى الحجاج يوسف بن أبى الوليد ، من أعظم ملوك بنى نصر، وكان عالما وشاعرا يحمى الآداب والفنون ، وهو الذى أضـــــــاف الى « الحمراء » أعظم منشآتها واجملها .

يصف واشنطن ايرفنج عودة محمد بن يوسف الى غرناطة ، بعد أن ساعد الملك فرناندو الـكاثوليكى على فتح اشـــبيلية المسلمين .

فعندما قارب الظافر الحزين بلوغ عاصمته الحبيبة، احتشد الناس احتفاء بأميرهم الغالى ، فقد احبوا فيه ولى نعمتهم . وأقاموا أقواس النصر على شرف ظفره المؤلم . وكلما مر بحشود النـــاس هتفوا جميعا بحياة المنتصر «الغالب» . فكان محمد بن يوسف يهز رأسه ، ويرد على الهـــاتفين ، « ولا غالب الا الله » ، وكأنه يستغفر ربه عما دفعته اليه مآزق السياسة ، والحلف الشيطانى مع عدوه .

ومنذ تلك اللحظة ذهب احتجاج ضميره هذا شعارا لملـكه ، أمر بنقشه على رنكه ، واستمر شعارا لخلفائه من بعده .

ما بين الرّصافة والجسر

« والجامع قد كسى ببردة الازدهـاء ، وجلى فى معرض البهاء ، كان شرفاته فلول فى سنان ، او اشر فى أسنان .. وللذبال تألق كنصنصة الحيات ، أو اشارة السبابة فى التحيات ، قد اترعت من السليط كؤوسها ، ووصلت بمحاجن الحـديد رؤوسها ، ونيطت بسلاسل كالجـذوع القائمة ، أو كالثعابين العائمة » .

أفادكم الله يا ابا محمد يابن صاحب الصـلاة
فكاننا يا بدر لا رحنا ... ولا جينا !

« اذا مات عـالم باشبيليه ، حملت كتبه الى قرطبة ، حتى تباع فيها .

وان مات مطرب بقرطبة ، وأريد بيع آلاته ، حملت الى اشبيليه » .

المقرى فى « نفخ الطيب »

كانت أولى مشـاهداتى لبعض آثار الحضـارة الاندلسية فى « شنترة » من ضواحى لشبونة (١٩٥٤) ، حصن مغربى بأعلى الجبل ، وقصر فوق سفحه اقيم فى القرن الرابع عشر ، أى لنحو قرنين بعد اسـترداد البرتغاليين لمدينة «اشبونة» . طرازه اسلامى ، يدل فى الاقل على ما كان لفن المغاربة من اثر بعيد على نمط العمارة فى شبه جزيرة ايبريا .

وفى زيارة عابرة لمدريد عام ١٩٥٨ ، خطفت الى طليطلة ، مربوطا بمقود الدليل ، فلم أر من آثارها الاسلامية القليلة سوى النزر اليسير : بقايا الاسوار ، وقنطرة على نهر التاجة (٩٩٧ م فى حكم المنصور بن أبى عامر) .

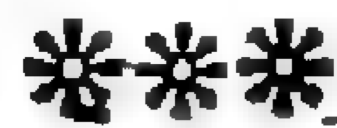
وفى زيارتى الثانية لاسبانيا (١٩٧١) ركزت على الاندلس ، فعبرت من سان جان ده لوس بفرنسا الى سان سباستيان بأسبانيا ، ومنها الى بورجوس (برغش) لادور وازور متعجلا كاتدرائيتها العظيمة ... دون تأثر وفى مدريد عدت الى لوحات فيلاسكيث وجويا بمتحف « البرادو » ... ثم انطلقت الى قرطبة دون توقف .

ويجدر بالزائر العربى اذا خصص اجازة للكشف عن بقايا الحضارة الاندلسية أن يصطحب كتاب الاستاذ عبد الله عنان : « الآثار الاندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » ، فلم يترك المؤلف حجرا اسلاميا فى الطبيعة أو فى المتاحف دون ذكر أو فحص أو تأمل .

كما يطيب التنويه بكتاب صدر حديثا عن « أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية » ، مجموعة دراسات اعدت باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بين الشرق والغرب ، متعاونا مع « اليونسكو » .. ففى فصله الاول بحث عميق فى « الادب » ، شارك فى اعداده الاستاذان : الدكتورة سهير القلماوى ، والدكتور محمد على مكى ، الرجل الذى جمع بين التفقه فى لغته ، واللغة الاسبانية قديمها وحديثها ، فيحدثنا عن «شيوع اللغة اللاتينية الدارجة ، الى جانب العربية بين المسيحيين والمسلمين الاندلسيين ، ثم مانتج عن ذلك كله من ظهور لون جديد من الشعر الاندلسى فى القرن التاسع

الميلادى - هو الذى عرف بالموشحة ، ومنه تفرع الزجل » .

وعالج الفصل المجموعات القصصية التى وصلت أوربا فى مطلع الرينسانس وتكلم عن الشعر الملحمى والمسرح ، وخاصة ملحمة « السيد كامبيادور » ، وأثر الشعر الاندلسى فيها ... الخ



قرطبة ! ياله من اسم مجلجل باهر فى تاريخ الحضارات ! .. ومن منا لم يسمع بجامعة قرطبة ، المصباح المنير فى ظلام أوروبا العصور الوسطى .

المدينة التى اتخذها عبد الرحمن الداخل ، صقر قريش ، حاضرة لدولة أموية مجددة ، أنشأها بالاندلس ومهد لها حضارة تزهر بالعلماء والفلاسفة والشعراء والفنانين . وزاد فى عزها وسؤددها الفكرى والحربى عبد الرحمن الناصر ، ومن بعده ابنه الحكم المستنصر، ذلك الامير العلامة الذى قيل فيه : « قلما وجد كتاب فى خزانته الا وله فيه قراءة أو نظر أو تعليق .. كما كان يقرب العلماء والادباء والمؤرخين ، ويستقدم المشارقة منهم ، مثل أبى على بن القاسم القالى، الذى طرز كتابه « الامالى » باسم الحكم المستنصر بالله » .

وتحضرنى واقعة ظريفة لابن هذا اللغوى الكبير ، وكان الابن أديبا شاعرا ، بنى له أبوه بقرطبة مرتبة ملحوظة .

وكان مقربا على الحاجب المنصور ابن أبى عامر . دخل عليه يوما فقال من أراد ان ينكت عليه : يامولانا ، هذا هو القالى (بمعنى الكاره) ، فرد الكيد الى النحر اطلاقة رصاصة ، اذ قال : القالى لاعداء الحاجب اذلهم الله بعزته .

..ثار فى خاطره أن يرحل الى موطن أبيه ببغـداد ، فلمـا حل بها كذبت عينـه ظنه ، فرجـع لا يلوى على متعذر ، ولا يمر بغير مستكره عند متكدر ، وأنشد :

أصـولى فلمـا أن حللت ببغـداد
رأيت ديارا يبعث الهم لحظهـا
وقوما يسومون الغريب باحقـاد
فوليت عنهـم عائـدا غير عاطـف
وان كان فيما بينهم نشء أجدادى
وجزت على مصر فغمضت مقلتى
وقلت بعنف : مغرب الشمس يا حادى

وكان أشـد ما لقيه ببغداد انه حرد يوما بحضرة جماعة منهم ، وأفرط فى سوء الخلق ، فقال أحدهم : يا هـذا . بئس ما عوضتنا عما نقله أبوك (أى صاحب « الامالى ») من بلدنا الى المغرب ، حمل عنا علمـا وأدبا ، وجئتنا بجهل وسوء أدب . فنهض من حينه قائلا : المشى يلزمنى الى مكة حافيا راجلا ، ان قعدت لـكم فى بلد من يومى هذا . وخرج .

اعترضه البواب وقال له : من أين أتيت يا انسان ؟ أجاب بشدة الغيظ : من لعنة الله .. فأوقفه وقال : اصبر حتى استأذن عليك . وكتب بالواقعة الىالوزير. فأشر الوزير البغـدادى على المـكتوب : لا ينكر هـذا الخلق على مغربى فاطلقوه ينصرف الى موضعه الذى ذكر .

عن كتاب « المغرب فى حلى المغرب »

***

دخلت قرطبة عصر اليوم الذى غادرت فيه مدريد ، وكان قد وقع اختيارى على الاقامة بفندق من فنـادق

الحكومة ، وهى المعروفة باسم « بارادور » ، وكانت فى بدايتها نوعا من « الاستراحات » الحكومية . و « البارادور » - حيث يوجد فى مناطق الآثار، يمتاز دائما بجمال الموقع ، وحسن الادارة وجودة الطعام . ولا يتمكن السائح من الفوز بحجرة فيه الا أن يبكر فى حجزها ، قبل وصوله بأيام .

دفعنى الى اختيار « بارادور الرصافة » اسمه ذو الرنين الشعرى فى نفس أهل اللغة العربية جميعا . يقع فى الربض الشمالى الغربى من المدينة ، وسط الرياض الفناء ، بالموقع الذى أقام فيه صقر قريش ، عبد الرحمن بن معاوية ضاحية لنزهته واستجمامه ، سماها « منية الرصافة » ، أسوة برصافة جده هشام ابن عبد الملك ، التى انشأها فى الشمال الشرقى من تدمر بالشام .

كان حنين عبد الرحمن الاموى الى رصافة الشام يستأهل أن يوصف بحنين الغرباء الى الاوطان فى اللغات الاوروبية : « نوستالجيا » .

ويقال بأنه أول ما نزل برصافة قرطبة ، شاهد نخلة أهاجت منه ذلك الحنين الخاص ، فأنشد :

تبدت لنا بين الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى
وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى
سقاك غوادى المزن من صوبها الذى
يسح ويستمرى السماكين بالوبل

وله أيضا :

أيهـــا الراكب الميمـــم ارضى
أقـر من بعـض الســلام لبعضى
ان جســــــمى كما تراه بأرض
وفؤادى ومالـكيــــــــه بأرض
قدر البين بيننـــا فافترقنـــا
وطوى البـــين من جفونى غمضى
قد قضى الله بالبعــــاد علينـــا
فعسى باقترابنـــا ســـوف يقضى

هـذا هو الامير الاموى طريد بلاده ، الهـارب من مذبحة اهله ، صقر قريش الذى أعاد مجد بنى امية فى شـبه الجزيرة باقصى المغرب ، فلم يخفف النجاح الباهر من لوعته وتحرقه على وطنه بالمشرق .

وما ان وضعت حقائبى فى « بارادور اروثانا » حتى هرعت منحدرا الى جسر الوادى الـكبير «جوادالكفير» لا الوى على شىء فى قرطبة الحديثة « كوردوفا » قبل ان اشـاهد المسجد الجامع ، أطوف بسـوره وأرتاد عرصاته ، أتوه بين سواريه ، رافع الراس الى عقـوده المزدوجة ، وما تبقى من محاريبه وقبابه .

حجيج المشوق الى أثر من أمجاد الانسانية عنـدما تعشق السلام ، وتخلد الى البناء .

حقب نادرة فى حياة الشعوب تسمو بها عن ضراوة الوحوش ، والوحش فى الانسان حى لايموت : معتديا اثيما ، أو مدافعا عن الحمى والزمار كريما . .

هاك اذن ، أيها المنتحى بالرصافة دارا ، هو جامع قرطبة الذى بناه عبد الرحمن الداخـل على أنقـاض كنيسة عوض أصـحابها من بيت المـال (٧٨٦ م) ، واضاف اليه عبد الرحمن الاوسـط حفيـده ، فعبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر بالله . .

اثر حضاری اسلامی شوهته الحضارة الـكاثوليكية ، عندما استأذن أسقف قرطبة الامبراطور شارلـكان فى اقامة كنيسة جامعة (كاتدرائية) ، وسـط المسجد الجامع ، وأذن له .

لم يعرف الخلف : النصـــارى : حق السلف : المسلمين . لسبب عجيب فى ذاته ، وان تكرر فى أكثر من موضع من الارض : هو اختلاف الديانة ، بل المذهب او العنصر ، او الارومة ، أو ما نريد .

كلا ! « لا تعذليه فان العذل يوجعه » لا تتعجلى اتهامه بالتعصب ، كاتب هذه السطور . فقد حاسب نفسه وساءلها : ماذا كان شعورى ذات يوم من عام ١٩٣٥ ، وأنا اجتاز باب « أياصوفيا » وأذكر ما صنع محمد الفاتح بالـكنيسة العظمى فى عاصمة الامبراطوريه الرومانية الشرقية ، غداة فتحه للقسطنطينية . كان أتاتورك فى ذلك العـــام قد قضى بأن يتحول جامع « أياصوفيا » الى متحف . فأزيل الملاط والبيـاض عن بعض حيطانه وظهرت صور بالفسيفساء (الموزايكه) تمثل الفن البيزنطى فى أروعه .

لم أكن أحب للسلطان الفاتح ان يحول مكان عبـادة الى عبـادة أخرى مع ان العثمانيين لم يصنعوا بذلك الاثر العظيم أكثر كثيرا من اخفاء ، او ازالة ما لايقبله الاسلام من رموز وتصاوير .

ولم أرض ، ولا أمنت على ما أتاه محمود الغزنوى بالهندوس ومعابدهم .

لم يكن عدم الرضا علامة تخلخل العقيدة او وهن فيها . بل كان جرحا لشعورى وايمانى بسماحة الاسلام .

ومن حقى اليوم أن لا أرضى بما اقتـرنه التعصب

بمسجد قرطبة الجامع ، وبغيره من روائع الآثار بأرض الاندلس .

ولا أعدو فى ذلك ما يقوله علماء نصارى من الاسبان وغيرهم ، وهو ان ما حل بجامع قرطبة عمل همجى شنيع . وحتى الامبراطور نفسه ، الذى أذن لاسقف قرطبة بانشاء الكاتدرائية فى صميم الجامع ، لم يعتم حين رأى الصرح الفضولى الضخم أن أبدى سخطه ، وندمه على ما أذن به . ويعزى أليه قوله للمشرفين على تشويه الجامع : « لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه فى أى مكان آخر . وقضيتم بذلك على ماكان أثرا وحيدا فى العالم » .

هذا ما نقله الينا الاستاذ محمد عبد الله عنان ، ويبدو انه شاك مثلى فى أن يصدر هذا القول من شارلكان (قارلة الخامس) ، وهو الآمر بازالة جانب من قصر الحمراء بغرناطة ، ليبنى قصره النشاز على نمط الرينسانس ، كما قوض مسجد الحمراء ، لتقوم مكانه كنيسة .

وقد يعرف القارىء أنى كثير الارتياد للمعابد ذات القيمة الفنية ، أيا كانت العقيدة التى ترسم طقوسها . فالمعبد فى كل دين يمثل أرفع وأبلغ ما يحققه الابداع الفنى للانسان ، المتميز عن الحيوان لا بالعقل وحده — ومن الحيوان ما تلوح عليه بعض مخايل النجابة — ولكن بالإيمان أيا كان منحاه ومثابته . فلم يعرف الى اليوم مكان عبادة ولا مراسيم صلوات للقرود فى أرقى مراتبها .

ومن الميسور والمألوف أن يعبر المشاهد عن أثر جامع قرطبة فى نفسه ، فيكون الاعجاب بروعته وعظمته . ولكن الغيظ غام على اعجابى ، مثلما خيمت

حيطان المصليات الناشزة على عقود المسجد وسواريه ، واعشي بصري انعكاس ضوء الشموع على ذهب حقيقى او زائف .

لم يشوه مسجد قرطبة الجامع بكنيسة كبيرة فحسب ، كان الجامع جديرا بأن يبتلعها لقمة غير سائغة ، بل شوه بعدد من الكنائس الصغيرة أو المصليات يمكن حصرها ، ويرفض حنقى أن يكون لها حصر حتى لو كان عددها اقل أو أكثر من أصابع اليد الواحدة . فقليلها المزوق المزدان ، كثير على الفن الرجولى الفحل الذى يشع من أشلاء جامع قرطبة ، وأشلاء ليست التعبير الصحيح ، فجسد العملاق بقرت بطنه جيوش « لليبوت » .

ولكم دمرت آثار وهدمت معابد فى كل مكان وزمان، بيد الحدثان أو الانسان . فنحن لا نذكر امام « البارتينون » ان أقواما من الهمج جعلوا منه مخزنا للبارود ، ينفجر ذات يوم فيما يكاد يعتبر حتما . وننعى اختفاء مساجد أثرية فى فتح الشارع ذى البواكى الموصل من العتبة الخضراء حتى القلعة . والمعابد المصرية التالدة التى اقتلعت حجارتها لبناء المصانع البائرة التى أقامها محمد على

ولكننا نتعزى بما أبقى عليه الزمان من آثار أجدادنا واسلافنا العظام ، فهو شىء قائم بذاته ، كمل أو نقص.

اما أن نقف بميدان الرميلة (الاسم التاريخى القديم لميدان صلاح الدين حاليا) وسوق الخيل نتأمل مدرسة السلطان حسن ، ومسجد امير اخور ، وقلعة صلاح الدين ، فيقذى العين منظر عمارات شائهة ، تمثل الجهالة والحمق ، فان للغيظ والحنق هنا الغلبة على الاحساس بالفن .

وتصور انك تشاهد جامع قرطبة وقد قضى البلى على بعض أرجائه مما يحدث لكثير من الآثار العظيمة فى العالم القديم والدنيا الجديدة .. انك تأسى لحاله ولكن احساسك بروعة بنائه وجماله ، ينسيك ما صنعته صروف الزمان .

اما ان ترى بعض أركانه ، ووسطه ، تحتلها ابنية مهجنة مستهجنة ، فان احساس الغضب قمين بالطغيان على ما عداه .

ويطيب جراح قلبى أن اطالع كلاما للعلامة الاسبانى المسيحى دون رودريجو فادور دى لوس ريوس ، استهل به كتابه عن المسجد الجامع :

« ان ثمة عالما من الذكريات يملأ مخيلة السائح ، حينما يسرح البصر بشعور من الاسى خلال هذه التشويهات ، تلك الاعمال التى املاها ايمان اجدادنا المفرق المخاص معا ، فدفعتهم الرغبة فى أن يمحوا الى الابد روح محمد ، واطياف أوليائه الذين يغشونها ، وسوف يغشونها ما بقيت قائمة . ذلك انه بالرغم من كل ما أصابها من تشويه وتغيير ، فقد ختم عليها بخاتم الفن الذى أوحى بها وروح الامة التى صممتها واقامتها »

هذا بناقوس يدق

عندما استولى الادفنش (الفونس السادس) ملك قشتالة وليون على طليطلة ، ارتاع المسلمون فى الاندلس قاطبة ، وخفقت قلوبهم رهبة وتوجسا عبر عنه شاعر اندلسى بهذا النعيق :

يا أهل أندلس حثوا مطيتكم
فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيات فى سفط

كان سقوط طليطلة اولى حركات الاسترداد الكبرى التى انتهت باخلاء المسلمين عن ملكهم عام ١٤٩٢ م ، سنة اكتشاف كريستوف كولومب للعالم الجديد .

فكان لاستيلاء الفونس السادس عليها سنة ١٠٨٥ م ذات الصدى الذى تردد بين القوط الغربيين «الفيزيقوط» عندما وقعت عاصمتهم ـ توليدو ، أى طليطلة ـ غنيمة للمسلمين ، قبل ذلك بأربعمائة عام.

ولا يقاس معنى ذلك الشعور العام بأهمية طليطلة فحسب ، كواحدة من مدن الاندلس العظيمة ، ولكن بالجو الذى اشتمل عملية الاسترداد ، وكان نذيراً بما

سوف يحدث مرارا وتكرارا على مر القرون التالية ، يواصل فيها الاسبان الضغط ، والحصار ، والمؤامرات والمعاهدات المنقوضة ، حتى يقضوا قضاء مبرما على الدولة الاسلامية الباهرة فى جنوب غربى أوربا .

لم يسترد الفونس السادس الحاضرة الكبرى بالحرب والحصار وحدهما ، بل أعانه على ذلك ملكها المدعو « القادر » ، واحد من أضعف ملوك الطوائف ، وصفه ابن بسام صاحب « الذخيرة » ، بأنه « كان آية فى قرب غوره ، امعة امرة ، اجبن من قبرة . ان حزم لم يعزم، وان سدى لم يلحم » .

مج أهل طليطلة حكمه وثاروا به ، فولى الادبار ، وانتهى بما حدث وسوف يحدث طوال سنوات الاسترداد : سعى للعودة الى عرشه ، مستنجدا بملك ليون وقشتالة .. فما عتم هذا أن حاصر المدينة ، وفى ركابه الملك المطرود ، « القادر » على لا شيء ، سوى مصالح نفسه ، يدفع لها ثمنا خيانة شعبه ووطنه .

وعندما ضاق بأهل طليطلة الحصار خرج وفد منهم لمقابلة الملك القشتالى . ووصف ابن بسام المنظر المزرى : « أدخل الوفد على ادفونش ... فاقبل عليهم بوجه كريه ، ولحظ لايشكون أن الشر فيه ، وقال لهم : بأى شيء تطمعون ؟ قالوا : بنا بقية ، ولنا فى فلان وفلان أمنية ... وسموا له بعض ملوك الطوائف (اعتمادا على المعونة التى يتوقعونها منهم) .

فصفق بيديه ،وتهافت حتى فحص برجليه ، ثم قال : أين رسل ابن عباد (صاحب اشبيلية) « فجيء بهم يرفلون فى ثياب الخناعة ، وينبسون بألسنة السمع والطاعة .. فقال لهم : مذ كم تحومون على ، وترومون الوصول الى ؟ ومتى عهدكم بفلان ، وأين ماجئتم به ،

لا كنتم ولا كان ؟ فجاءوا بجملة ميرة ، واحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة . فما زاد على أن ركل كل ذلك برجله ، وأمر بانتهابه كله .

« ولم يبق ملك من ملوك الطوائف الا احضر يومئذ رسله ، وكانت حاله حال من كان قبله . وجعل أعلاجه يدفعون فى ظهورهم ، وأهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم . فخرج شيختها من عنده ، وقد سقط فى أيديهم ، وطمع كل شيء فيهم . وخلوا بينه وبين البلد لثلاثة أيام من ذلك المشهد ، ودخل طليطلة على حكمه ، واثبت فى عرصتها قدم ظلمه » .

وما ان لبث شهرا فى المدينة المنكوبة حتى « أمر ادفونش بتغيير المسجد الجامع .. وحدثنى من شهد طواغيته تبتدره (أى الجامع) فى يوم أعمى البصائر ، وليس فيه الا الشيخ الاستاذ المغامى (محمد بن عيسى) ، آخر من صدر عنه ، واعتمده فى ذلك اليوم ليتزود منه . وقد أطلق به مردة عفاريته (ادفونش) ، وسرعان طواغيته ، وبين يدى الشيخ أحد التلامذة يقرأ . فكلما قالوا له : عجل ، اشار هو الى تلميذه بأن اكمل .

« ثم قام ، ما طاش ولا تهيب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه مليا وانتحب . والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه . لم تمتد اليه يد ، ولا عرض له بمكروه أحد » .

هذه صورة نموذجية لمآسى « استرداد » الاندلس ، تخيلتها وأنا واقف بميدان كاتدرائية اشبيلية ، واحدة من أكبر وأعظم كنائس العالم ، احتلت مكان المسجد الجامع الذى هدم وقوض فيما عدا « صومعته » ، أى منارته أو مأذنته .

وسطت المنارة ، واستبدل ببعضها الاعلى عمارة للناقوس ، يعلوها تمثال يدور مع الريح ، دوران التاريخ فى تلك البلاد العريقة ، مسيحية أو مسلمة .

تلكم هى « الخيرالدا » ، اى الدوارة ، وفى عاميتنا « أبو رياح » .

وعجيب من أمرى أن أعزف فى اسبانيا عن زيارة اثر شائه ، كلما قرأت فى كتب الادلاء عن قصر أو قصبة ، فعرفت ان قد أحدثت فيها تعديلات وتحويرات واضافات ، عقب الاستيلاء على ثغور الاندلس الكبرى . فلست المدله بعشق أشلاء الجدران والابواب والعقود ، محشورة مطمورة وسط المبانى المجددة على مدى الاعوام والقرون .

انما « الخيرالدا » خريدة أخنى عليها الدهر ، ما فتىء العشاق يتغزلون فى بهائها . وزعموا ان أهل اشبيلية ، بعد الاسترداد ، مسيحيين ومسلمين ، قاوموا هدم منارة الجامع الزاهرة مع سائره ، فأبقى على بعضها . وبدلوا فى شطرها الاعلى ، وكأنها « مانكان » خشبى بلا راس ، يلبسها الحائك ما يعد من الثياب ، ثم يركب لها الراس المناسب لظروف العرض والبيع والشراء .

رايت اختها الكبرى بالجنوب المغربى قبل أن اشهد « الخيرالدا » فحفظت الود لخريدة مراكش الفتانة بلونها المحمر فى رائع النهار ، ووضح شمس الصحراء ، عند اقدام جبال الاطلس الشماء ، يجللها الجليد الدائم . هى المعروفة بمنارة « الكتبية » ، اسم الجامع الكبير الذى كانت تقوم حواليه حوانيت الوراقين ، مثلما رأيت فى صباى « كتبية » الحلوجى تواجه الجدار الغربى للأزهر الشريف .

شاءت محاسن الصدف ان اقيم بفندق يحمل اسم

« المنارة » ، وان ارى « الـكتبية » من نافذة مخدعى، ما طلعت الشمس او غربت على اجمل مدائن الجنوب المغربى ، مدينـة يوسف بن تاشفين ، مؤسس دولة المرابطين الملثمين .

تراها من كل موضـع بمراكش ، جوهرة تتألق فى سماء عاصمة البربر ، عمودا مربع الاضلاع من نضار، اما « الخيرالدا » ، وزنقتها فى كشح كاتدرائية اشبيلية، فلا سبيل الى تاملها ، الا ان يصيب العابر نافذة تطل عليها من البعد ، وكانت نافذة فندقى تطل هناك على الرياض التى اشتهرت بها المدينة الساحرة على ضـفة الوادى الـكبير .

سمعت باسمها لاول مرة من زميل لنا ، ونحن نتامل منارة « الـكتبية » فى زيارتى السابقة لمراكش ، عام ١٩٥٨ ، وكانت « الخيرالدا » على لسـان زميلى شيئا يفوق جمالا وروعة منارة مراكش .

واعجبت اخيرا بمنارة اشبيلية اعجابا مهجنا ، على غرار جدها العاثر فيما اصابها وحاطهـا بكل جـديد وغريب عليها ، وكافر بها .

حتى « البرج الذهبى » ، حارس ميـنـاء الوادى الـكبير ، انطفأ نوره فى عينى ، لا يمثل شيئا له علاقة بعصر المعتمد بن عباد ، او بغير ابن عباد . فانا اليوم ، قطعا ، فى مدينة عصرية ، عاصمة الثراء والحظ والغناء « الهوندو » والرقص « الفلامنكو » . وما كرهت شيئا اكثر من الاثنين ، لا لعيب فيهما او سوء ، ولـكن ضيقا بنزولهما الى الاسـواق تمرا بملاهى وكباريهات الشرق والغرب ، سلعة رخيصة ، مع انهما من اجمـل وادق بواقى الفن الفولـكلورى فى العالم .

واشبيلية مدينة مصارعى الثيران ، وما كرهت شيئا

اكثر من كرهى لمصارعة الثيران ، لم أر منها الا حفلا فى باحة المسرح الرومانى بمدينة نيم فى البروفانس ، كان اشبه بتمثيلية منه بصراع حقيقى ، اكتشفت أمرها بعد نهايتها ، عندما سمعت بعض المتحمسين الفرنسيين يحتجون على صفر سن الثيران التى قدمت ، وقتلت وسحلت الى خارج الحلبة .

وما هو ذلك الصراع غير المتكافىء حتى فى أعظمه ؟ كوكبة من المهرجين الراجلين والراكبين خيولا عجافا ، يرشقون جسد الثور بسهام مريشة ، ويطعنونه بمزاريق طويلة ، فاذا ما كل الوحش جريا ومطاردة وخوارا انفرد به « التوريرو » — ولو انفرد به قبل رشق السهام المريشة فى لحمه ، لكان للصراع الرهيب معنى — ووقف وتحرك يستثيره بالقباء الاحمر ، ويخفى فى طياته سيفه البتار ، الثور هائج يرغى ويزبد ، و « الزول » يدور على مشط قدميه ، ويجثو على ركبة ونصف فيصرخ الجمهور اعجابا « أوليه ! » ، يتحدى المصارع ضحيته الهالكة حتما الا اذا لم تتقبل السيدة العذراء صلاة البطل مفتول العضل ، ممشوق القوام .

كنت فى ذلك الزمان غرا شرها الى المعرفة ، طالعت قصة بلاسكو ايبانيث « الحلبات الدامية » لا لشىء سوى اشتمالها على شرح مفصل واف لقواعد اللعبة الوحشية .

لا يفضلن عليها رواية « كارمن » بموسيقى جورج بيزيه ، أحفظ الحانها واعزفها من قديم ، وهأنذا يتردد على الفور فى رأسى غناء كاميللو ، ذلك الديك الرومى منفوش الريش ، يدخل على مارش « التوريادور » ، مختالا كالطاووس فى طريقه الى ميدان الصراع . . .

بأشبيلية ، منتفخ الصدر والاوداج ، يحب لفافة السجاير ، الفانية كارمن ، صديقة قطاع الطرق والمهربين ، وقد تزينت فى ذلك اليوم بأجمل ملابس الاندلسيات ، تغطي رأسها « المانتلا » السوداء ، لتشهد حبيبها « التوريرو » المعظم فى ذروة انتصاره .

لعله انتصر وفاز ، على تصفيق الجماهير المتعطشة للدماء ، أما هى كارمن ، فلم يترك لها دون جوزيه ، العشيق المحقر المهجور ، سبيلا الى باب المدرجات ، حاورها محاورة الثور وقضى عليها قبل أن يقضى كاميللو على الثور الهائج .

قتلها باسم الغيرة ، الحاسة الحيوانية التى لا تعرف لها قطاطى اسما ، ولكن فعلها لا يقل عنفا فيها عن عنف العاقل ، ابن حوة وآدم ..

لا فضان أيضا الاحتفاظ فى صميم روحى بكوميديا بومارشية « حلاق اشبيلية » ، وبموسيقى روسينى ، وأعز من كل هذا « زواج فيجارو » ، اوبرا موزار الخالدة ، وفيجارو هو حلاق اشبيلية ، رب الحيل .

لا يعنينى من اشبيلية مغانيها ومقاهيها وكهوفها تردد أصداء الهوندو والفلامنكو وطرقعة الصاجات الخشبية وموسيقى الفجر ، فلست من أبناء الليل ، ولدت فى الفجر ، انا سائح رائعة النهار ، آوى إلى فراشى مبكرا كالدجاج ، منهكا من السير والمشاهدة والانفعال بالآثار .

نعم زرت كاتدرائية اشبيلية ، أفخم ما شهدت من كنائس ، وعبرت غير مكترث بقبر الملكين الكاثوليكيين ، وأدرت البصر والخطا حول جدث ذلك الايطالى العظيم ، ابن جنوا ، كريستوف كولومب .

نعم ، تجولت فى حى «سانتاكروث» حواريه وزنقاته

وكنائسه ، ومتعت نظرى بأفنيته الغناء « باسيو » ، وبالخضرة تتدلى من الطيقان وتغطى الحيطان ، وأصص الورد والريحان مرصوصة فوق الطنف ذات المشتبكات الحديدية كأنها سيقان الازاهير .

هكذا أتصور أحياء الاندلس عندما كان يسكنها المسلمون من البربر والعرب والصقالبة والموالى ثم اليهود والموريسكو .

ولكنها اليوم مساكن أقوام غير أولئك ، قد يكون من بينهم أحفاد مدجنين ومتنصرين . وما على من كل هذا الزيف التاريخى ، وقد عرفت فى فاس ومكناس وتلمسان ومراكش الاسلوب الاندلسى فى البناء ، وربما فى اللباس وقطعا فى الموسيقى والغناء ، وفى الدين واللغة .. عالما يتدفق حيوية ويزهو بجمال هو الصدق والاصالة .

فالسائح الباحث عن حضارة « المور » (المغاربة) فى الاندلس ، ينسى أن يضيف العيان الى الاثر ، الاثر فى الاندلس ، والعيان البيان فى المغرب الاقصى ، سهله وحزنه ، ما بين جبال الريف والاطلس ، وحينما عبرت من اسبانيا الى المغرب ، من الجزيرة (الخثيراس) الى سبته ، عرفت انى انهج بعض طريق المطرودين من جنة الاندلس ، لائذين ببنى عمومتهم ، ورأيت لاول مرة صخرة ابن زياد ، وجزت مجازه أو بوغازه ، وهو بحر الزقاق قبل أن يحمل اسم القائد المغربى الشهير .

حان أن ننتقل الى بر العدوة ، لنتابع رحلتى البرقية عبر الشمال الافريقى ، وتمثلا بالمذيع الذى يعد السامع الى حفلة « طرب » خارجية ، أستأذنه فى استعارة حماسه العجيب مناديا :

فالى هناك !

سندباد يبلغ المغرب الأقصى

شكا صديق قديم ، فى عرض حديث عن برامج التعليم بمدارسنا ، من ان ابنته تجهل كل شيء عن المغرب أدناه وأوسطه وأقصاه ، وهذا على الرغم من دراستهم لما يعرف بالقومية العربية « من الخليج الى المحيط » . واذا كانت قد سمعت بفتوح العرب للمغرب والاندلس ، فقد توقف استيعابها عند اسمين أو ثلاثة من ابطال الفتح العربى : عقبة بن نافع الفهرى ، وموسى ابن نصير ، واضافت اليهما ـ باعتباره عربيا ـ طارقا ابن زياد ، وهو من سبى البربر ، ظفر به موسى فكان من مواليه .

سألها عن « الموحدين » فأجابت بأنهم : المؤمنون بالتوحيد ، فقال لها : وفسر الماء بعد الجهد بالماء ، واتبع بسؤاله : ومن هم « المرابطون » فلم تحر الفتاة جوابا .

قلت له : لو فاجأتنى بالسؤال عن الاخيرين ، قبل ظعنى الاول الى المغرب (١٩٥٨) ، لما وجدتنى أفصح من ابنتك ، ذلك لاننا فى مصر ، وفى الركن الشمالى الشرقى من افريقيا ، تقوم ثقافتنا الاسلامية فى معظمها على المشرق دون المغرب .

ولن احاول فى هذا المقال اقامة خلفية تاريخية

للمغرب ، فقد أقنعتني قراءاتي المطولة نوعا في تاريخ المغاربة ، قبل الفتح الاسلامي ، وبعده ، بأن تفاصيل هـذا التاريخ في ذرواته الحضارية والحربية العظيمة، وفي وهاده ومنخفضاته ، معقدة تعقيدا لا سبيـل الى تبسيطه ، فكم من أسر وقبائل ، وأفخاذ من قبائل عربية يمانية ، شامية ، هلالية ، أو قبـائل بربرية صنهاجة ، وزناتة ، وكتامة ، ومصمودة ، وبرغواطة ، ودكالة ، ونفوسة ، ولواته ، ومكناسة ، ومفراوة ، وبني زيان ، وبني مرين .. الخ .. الخ ..

وكم من حروب أهليـة ، وغزوات ، وفتـوح واحتلال نورماندي من صقلية ، الى احتلال اسباني ، وانتقال من الشمال الافريقي عبر بحر الزقاق الى شبه جزيرة أيبيريا ، مجاهدين ، فمستوطنين فمواطنين عادوا كلهم الى افريقيا على وجوههم وقـد أجـلاهم النصارى عن ملك دام سبعمائة عام .

وكم من أسر ملوكية ، وزعامات دينية ، تدوخ من يتابع تقلبـاتها على مدى القـرون ، وطول الشـمال الافريقي ، وعرضـه : من مرابطين وموحدين ومرينيين وأغالبة وحفصيين ، وادارسـة ، وفاطمية ، وخوارج اباضية ، وعبد الواد.. ولن تسعفك الذاكرة ، وسوف يتلخبط كيانك بين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . وأبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبـد المؤمن ، وأبي يعقوب بن محمد الناصر بن أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

يجب أن أهرب من كل هذا الحرج الذي أثاره عبوري من الاندلس الى المغرب اثارة في غير مكانها ، فما أنا الا عابر سبيل ، تهمني رؤية الغابة ، قبـل أن أتوه بين أشجارها ، أدون انطباعاتي الطائرة ، قبـل أن تضيع

من الذاكرة ، لانى اذا حاولت تلخيص هـذا التـاريخ المتشابك المعقد ، ضاعت بهجته ، وانكسر وزنه وايقاعه الحى المتوثب ، وغدوت أشبه بالمؤرخ الذى حمل مؤلفه على ظهور الابل الى العاهل الآمر بكتابته ، وهذا يطالبه على مدى السـنين بايجاز بعد ايجاز ، حتى حضرت العاهل الوفاة ، فسأل مؤرخه تلخيصه الاخير ، أجابه : لقد ولدوا ، واشتد عودهم ، وجاهدوا ، وظفروا ، ثم اصابتهم الهزيمة ، وذهب ريحهم ، رحمـة الله عليك وعليهم أجمعين .

او كما قال يوليوس قيصر فى رسـالته الى مجلس شيوخ روما : حضرت ، ونظرت ، وظفرت . فهل تغنى رسالته المقتضبة عن الاثر الادبى الفريد الذى تركه لنا ذلك القائد الرومانى الاعظم عن حروبه فى غاليا ؟

كان من حسن الطالع أن بدأت معرفتى بالمغرب الاقصى فى فاس ، أجمل مدنه ، وأغناها حضـارة تالدة . واحتفاء بالعلوم الدينية فى واحدة من أقدم جامعـات العالم ، وهى جامعة القرويين ، وما برحت نبراسـا للعلوم الاسلامية على المذهب المـالـكى .

فقد ركبت الطائرة ذات صباح من عام ١٩٥٨ ، مع وفد مصر الى مؤتمر اللجان القومية العربية لليونسكو ، دعت اليـه الحكومة الملـكية بالمغرب ، وكان الطـريق الايسر والاسرع فى ذلك الزمان من القاهرة الى باريس ، ومنها الى الرباط ففاس .

افتتحه وخطبه المغفور له الملك محمـد الخامس ، ذلك الوطنى الـكبير الذى لاقى من الاستعمار الفرنسى الضارى ضروبا من الاعنات والابعاد عن العرش والنفى ، فلم تلن له قناة ، وعاد الى سدة عرشه بقوة شعبه ، عامته وخاصته . جرى حفل الافتتاح فى قاعة الاحتفالات

بمدرسة مولاى أدريس ، وعلى قيد خطوات من جامعة القرويين ، وتحدث عن الوفود المرحوم الاستاذ محمد شفيق غربال، مندوب الجامعة العربية ، وتراس المؤتمر صديقنا الكبير الاستاذ محمد الفاسي وزير التهذيب الوطنى والشبيبة والرياضة والفنون الجميلة حينذاك .

وانزلتنا الحكومة الشريفية أحسن منزل ، وافاضت علينا من كرمها وحبها ما لانوفيه بلسان ، فقد حرصت على أن تسير بنا فى معارج فاس القديمة ، وغيرها من بلاد المغرب ، نتلقى تحيات أهلها ، تزدحم بهم طرقاتها، وبطحاواتها ، ذات الجمال الساحر فى اصالتها ، ودعانا الاهل والصحاب المغاربة الى عقر دورهم ، وحسن ضيافتهم يسبغون علينا من فيض كرمهم ونبل خلقهم ، ما تدوم ذكراه على مدى الايام ، واستأذن هنا فى الانتفاع بما سجلته عقب عودتى الى مصر من انطباعات عن حفل موسيقى بمنزل السيد أحمد مكوار بساحة البطحاء .

ففى الصفحة الاولى من الكتيب الذى وزع علينا بعد العشاء ـ وفن الطهى المغربى شىء هائل يجل عن الوصف ـ جاءت هذه الكلمات :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. تفتح السهرة الموسيقية بكلمة صاحب المعالى الاستاذ السيد محمد الفاسى :

ا ـ جوق الاذاعة الوطنية المغربية برئاسة السيد احمد الوليلى .

ب ـ جوق المعهد الموسيقى بتطوان برئاسة النابغة السيد محمد التلمسانى .

ج ـ جوق المرحوم البريهى بفاس ، برئاسة العبقرى السيد عبد الكريم الرايس .

١ ـ « مشاليت » من طبع (اى مقام) « الحجاز الشرقى » .

٢ ـ « التواشي (كذا) السبع » من طبع « الحجاز الشرقى » » .

فضينا الليل حتى مطلع الفجر نستمع الى ما يقرب من الخمسين منشدا وعازفا يتداولون أداء الموشحات والازجال والدوبيت ، أداء المؤمنين بفنهم : الاحياء فى تاريخهم القريب والبعيد .

يا من له أحسن الصفات
يا غصن آس ويا قمر
غبت عنا فلم يأت منك آت
فاستوحش السمع والبصر
لولا الصبا من تلك الجهات
لذاب جسمى من الفكر
يا ايها الطالع السعيد
جاءت بأنبائك الرياح
ان الصبا عنك أخبرتنى
فاهتز روض المنى وفاح

ثم هذا الزجل :

وحسنك اشتهر فى غرناطة وحدك
يا زين الصفار
نعم فى السهر تسقى الملاح بيدك
كؤوس العقار
وحين تنقر الوتر يشرق حينا خدك
كشمس النهار
وخلى قريب ، وعيشى يطيب
ودع الرقيب ، فى قصده يخيب
عن بصرى يغيب

قوة الايحاء فى هـذه الموسـيقى ! شـبابى يعود الى مزدأنا بكل ما يضفيه عليه خيال السنين الغابرة ، لان هؤلاء المغنين والعازفين اكثر احساسا بما ينشدون ، ممن سمعتهم فى طفولتى ، أولئك كانوا يغنون كأنهم فى غفوة ، دون اقتناع ، وهؤلاء يعيشون تاريخهم الطويل، فيذكرون انهم فتحوا الاندلس ، ثم خرجوا من الاندلس، الى قطاعهم الجنوبى ، ولـكنهم فى هجرتهم حملوا معهم دينهم ، ولغتهم ، وقوميتهم . . . وكنزهم الموسيـقى الغالى : هذه التواشيح .

يعيش أهل المغرب الاقصى تاريخهم عندما يجتمعون ليغنوا اندلسـياتهم الجميلة ، بمصـاحبة الآلات التقليدية ، وغيرها ، فهم لايتزمتون للناى ولا للرباب ، ويضيفون الى التخت الاندلسى آلات البيانو والشللو والـكلارينت والسـاكسفون ، ويستبدلون بالنـاى الفـلوت ، وبالرباب الـكمنجة ، وان كانوا يمسـكونها واقفة كالرباب ..

وتعبيرهم الموسـيقى خلو من التخنث والتكسر والطراوة ، يبعث فيك النشاط وحب الحياة ، بدل أن يحرضك على النعاس .. والهيام والاستسلام .

وطريقـة غنائهم الجمـاعى فيهـا تلوين جميـل ، فالاصوات لا تشترك جميعهـا طول الوقت : يسكت بعضها آنا فيهدأ النغم ، ويغنى الجميع آنا آخر فترتفع حرارة النغم ، واذا بصوت رجل واحد يعلو على الجميع فى طبقة نسائية اللون ، تعرف فى الغناء الاوربى بصوت الرجال « الفالستو » ، فتحس كأن الحان التوشيحة تعلوها ألسنة من اللهب ، هى الصورة الذهنية للوجد والصبابة ونار العشق .

وكذلك هم فى التوزيع بين الآلات ، دون أن يخرجوا

عن الاجماع الميلودى البحت .

كنت وأنا أستمع ، أطالع فى الوقت نفسه نقوش البهو الذى جاسنا فيه ، فتتحرك عيناى مع تلك الاقواس والمقرنصات والصفف ، وتنزلق فوق الزليخ الاخضر والازرق ، ثم تنتقل الى خوان الحلوى، وقماقم الطيب ، والاباريق الفضية التى يملأون لنا منها كئوس الشراب الطهور .

فأنا أملأ عينى وسمعى وقلبى بهذا الفن المغربى الاصيل ، يحتفظون به الى اليوم ، ويعيشون فيه ، ويبنون قصورهم الحديثة على أسلوبه ، فكأنك بين ظهرانيهم تحيا فى قصور اسبانيا ، وتصهر « غصن الاندلس الرطيب » ؛ ولا تراها مجرد متاحف ، كأنها الطلل البالى .

ليلتنا فى منزل السيد أحمد مكوار بفاس ، لم تكن من ليالى العصر الحاضر ، والموسيقى الاندلسية فتحت طاقات خيالى ، فاذا بى استوحى منارتى «الكتبية» و « الخيرالدا » وقصر الحمراء وجامع قرطبة ، وبوابات طليطلة ؛ وبرج حسان ، بل أنا أعيش فى القصص الشعبية المصرية التى تحدثنا عن « تغريبة بنى هلال » و « خضرة الشريفة » و .. و .. « هلا هلا يا بدوى جاب اليسرى (الاسرى) » .

سرت مع موسى بن نصير الى مدينة النحاس ، بعد ان صحبنى عقبة بن نافع الى مدينة القيروان، ورافقت « المغررين » لاكتشاف بحر الظلمات ، حتى بلغنا الجزائر السعيدة «فرطناتس» ، والتى تحرف « ألف ليلة » اسمها من جزائر الخالدات الى جزائر خالدان ، حيث حكم الملك شهرمان ، أبو قمر الزمان .

وعندما : « طلع البدر علينا من ثنيات وداع » ،

ختمت الاصوات مجتمعة بشـــذرات من درج « نوبة رمل الماية » :

الله عظم قـــدر جاه محمـــــد
وأناله فضـــــــلا لديه عظيـــــما
فى محكم التنزيل قال لخلقـــــه :
صلوا عليه وســـــلموا تســـليما

والالحان الختامية هذه انشدت فى ايقاع دينى جليل، وكانت شطرة « صلوا عليه وسلموا تسليما » ، صلاة حارة تجيش بها نفوس محبة وامقة .

***

لم أكن رايت أندلس فى ذلك الوقت وان عرفتها فى الصور والـكتب والسينما .

وأشـــهد ان رحلتي الاخيرة (١٩٧١) من الاندلس الى الشمال الافريقى ، كانت بنت تلك الليلة الموسيقية فى بيت مغربى كريم .

ولذلك حرصت على زيارة صديقنا الـكبير ، وزير الدولة ، الاستاذ محمد الفاسى ، فى مكتبه بوزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية ، و « التعليم الاصلى » ، وكان محور حديثنا هو موسيقى «بلاد المغرب السعيدة» ونفحاتها الاندلسية .

جـادك الغيـــث اذا الغيـــث همى
يا زمان الوصـــــــــــل بالاندلس

فذلكة المرابطين الملثمين

بنو الحرب غذتهم لبان ثديهـا ... فلم يستطيبوا منه الا العلقمـا
يحثون للهيجاء جرداً سلاهبـا ... وينضون في البيداء بذلا صلادما
اذا طعنوا بالسمهرية خلتهم ... ضراغم تغرى بالقلوب أراقما
وان كر منهم ذو لثـام مصمم ... غدا لفم الهيجاء بالسيف لاثما

« ابن حمديس الاندلسى »

قلت ان رحلتى عام ١٩٧١ من الاندلس الى الشمال الافريقى كانت بنت ليلة موسيقية فى بيت رجل كريم من فاس ، استمعنا فيهـا الى الموشحات الاندلسـية المغربية أو ما يسميه الافرنج عادة بالفن «الموريسكى» ، نسبة الى « المور » ، وهم المغاربة .

وأبديت الشك فى قدرتى على تلخيص تاريخ المغرب الـكبير ، ثم عدت بعد الانتهاء من كتابة ذلك الفصل ألوم نفسى على التخلف والنكوص ، بل الهروب السهل أمام صعوبة يجب التغلب عليهـا ، لا سيما وانني لم اجب عن سؤال صديق لى ألقاه على ابنته التلميـذة بالثـانوية العـامة ، فلم تتمكن من الاجـابة ، كان السؤال : من هم المرابطون ؟

وهو سـؤال لايكفى فيه مجرد التعريف بهم خارج الاحداث التى نشأوا فيها ، والبقاع التى خرجوا منها ليشيدوا امبراطورية اسلامية عظمى تبـدأ من الجزائر

حتى بحر الظلمات ، ومن الاندلس حتى بلاد السنغال.
وفيما أنا أحاسب نفسي على هروبى من تلخيص تاريخ طويل معقد ، اهتديت الى انني قد أيسر الامر لو ركزت على تاريخ المغرب الاقصى وحده ، فمصدر الصعوبة هو ان تاريخ المغرب الكبير متشعب متفكك ، يتناول تاريخ الشمال الافريقي فى كل ما يلى مصر غربا ، بدءا ببرقة وطرابلس : وانتهاء بمدينة اسفى على المحيط الاطلنطى غربا ، وأود هنا تذكير القارىء بأن الفتوح الاسلامية لبلاد المغرب استغرقت نحو سبعين سنة ، مع ان فتح العرب لمصر والشام والعراق وفارس تم فى أقل من عشر سنوات .
وبين يدى دراسة تاريخية عمرانية أثرية عنوانها : « المغرب الكبير ــ العصر الاسلامى » تأليف الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم (١٩٦٦) يحتويها مجلد ضخم يقع فى نحو ألف صفحة ، يصفه مؤلفه بأنه « عرض سريع (كذا) لتاريخ المغرب فى العصر الاسلامى، وخلاصة دراسة قمت بها فى بلاد المغرب والاندلس» ، علما بأن هذه الدراسة تقف عند دولة « الموحدين » اى حوالى سنة ١٢٦٩ ميلادية .
سأقصر مقالى ، اذن ، على شطيرة من تاريخ المغرب الاقصى ، من بدء انتشار الاسلام فى أنحائه على يد اسرة الادارسة ، حتى عصر المرابطين ، فيما أسميه سخرية بنفسى : تلخيص التلخيص المختزل .
***
انفصل المغرب الاقصى عن الامبراطورية الاسلامية فى الشرق ، وكان العباسيون قليلى الاحتفاء بتلك الاقطار النائية ، فأصبحت القيروان ، حاضرة افريقية (اى القطر التونسي حالا) ، وقرطبة حاضرة الاندلس ،

منارتى العرفان والحضارة فى الغرب الاسلامى

وسيرتفع منار جديد للحضارة فى وسط المغرب الاقصى ، ما فتىء مضيئا حتى اليوم بمدينة فاس ، انشأها عربى (ادريس بن عبد الله بن الحسن ، حفيد على بن أبى طالب) خرج على العباسيين مع العلويين بمكة والمدينة تحت زعامة ابن أخيه الحسين ، وتمكن بعد هزيمة العلويين على يد الخليفة الهادى ، من الهرب الى مصر ، ومنهـا رحل الى الشمال الافريقى ، بحيث انتهى ضيفا عزيزا على قبيلة « الاوربية » بمدينة وليلي (فولوبليس الرومان) ، فولوه الامامة ، وأخذ فى نشر الدعوة الاسلامية بين ظهرانيهم ، والقبائل البربرية الاخرى ، ويقول الرواة بأن هارون الرشيد انفذ اليه جاسوسا سفاحا فى صورة لاجىء نجح فى اجتذاب ثقة الامام الادريسى ، فدس له السم القاتل (٧٩٢ م) .

توفى مولاى ادريس دون ولد ، ولكنه ترك جارية من البربر حاملا فى شهرها السابع ، وقررت قبائل البربر ، ان وضعت غلاما ، كفلوه ثم بايعوه لخلافة أبيه ، ونشأ غلاما كثير الشبه بأبيه فسمي باسمه .

وادريس الثانى هذا هو منشىء مدينة فاس، ولكن المؤرخين اختلفوا فيما اذا كان ادريس الاول قد شرع فى تأسيس المدينة ، ثم أكملها ابنه ، وقد أثبت المستشرق الفرنسي ليفى - بروفنسال تفاصيل هذا الانشاء مقاسمة بين الادريسيين : الاول، والثانى ، وكانت المدينة تتألف من قسمين : أحدهما يعرف بعدوة الاندلسيين، اسكنهم ادريس الثانى عندما وفدوا عليه لاجئين من اضطهاد أمرائهم ، والآخر يعرف بعدوة القرويين ، وسور كل قسم بسور خاص ، يجرى بينهما وادي فاس ثم ضم القسمان وأحيطا بسور واحد ، فكانت فاس

الزهراء التى احتفظت الى اليوم بطـابعها التاريخى ، وسبقها الحضارى ، علما وفنا وأدبا وصناعة ، وان لم تقم دائما كعاصمة للمغرب الاقصى ، فبعض السلاطين اقاموا عاصمتهم بمكناس ، وانشـأ المرابطون مدينـة مراكش حاضرة لامبراطوريتهم ، وكذلك الموحدون .

واذا كانت مدينة الرباط اليوم هي عاصمة الحكومة الشريفية ، فما برحت فاس المدينـة الغنيـة بآثارها وتحفها ، ومدارسها ، تضمها جامعة « القرويين » ، من أقدم جامعات العالم ، وبثروتها الزراعية فى صقعها وفحصها .

انتهت دولة الادارسة عام ٩٢٠ م ، وتلاها فى الحكم بعد فترة طويلة ، دولة المرابطـين ، واذا كانت أسرة الادارسة عربية الارومة ، ترتد فى أصولها الى العلويين ، فان أسرة المرابطين كانت من البربر الخلص ، خرجت من قبائل صنهاجة الجنوب ، الضاربة فى الصحراء : وتولت لمتونه زعامة قبائل جدالة ومسوفه ، ثم انتقلت الرئاسة الى جدالة يتزعمها يحيى بن ابراهيم ، وكان رجلا شـديد الاحسـاس بنقص التعاليم الدينيـة فى الصنهاجة ، وحاجتهم الى من يتولى تثقيفهم ، وتهذيب طباعهم ، وكانت حجته الى مكة والمدينـة فتحا مبينا لقبائل البربر ، فما أن عاد يحيى الى أهله حتى استدعى فقيها من سجلماسة بأقصى الجنوب ، من أرباب العلم والتقوى ، اسمه عبد الله بن ياسين ، ليؤدي رسـالة الاسلام الصحيحة بين مسلمين على البـداوة وخشونة الطبع .

وفى مضـارب لمتونة بدأ عبـد الله دروس الدعوة والارشاد الى أصول الدين الصحيحة ، وعنى فيما عني

بدعوتهم وارشـــادهم الى السلوك السليم ومحاسن الاخلاق .

ضاقت لمتونة ذرعا بهـذه التعاليم الصـارمة التى لا تتفق مع حياة أولئك البدو الملثمين، ومدارها الاعتداء والبغى ، وارتكاب المعاصى دون رادع من خلق أو دين، وما أن مات زعيمهم يحيى بن ابراهيم الجدالى ، ولم يتمكن خليفته يحيى بن عمر من كبح جماحهم ، حتى أخرجوا عنهم المرشد الامين ، فتبعه أميرهم يحيى بن عمر ، مصطحبا شقيقه أبا بكر بن عمر ، واتجهوا جنوبا نحو السنغال ، ومعهم سبعة رجال من جدالة ، ويرجح المؤرخون انهم احتلوا فوق ربوة محاطة بالماء ، انفردوا فى غياضها منقطعين للعبادة ، وأسس عبـد الله هناك رباطا .

والرباط من المرابطة ، اى ملازمة مكان للجهاد حيث ترابط خيل المجاهدين ، من قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، ومن قوله جل وعلا : « يا أيها الذين آمنوا اصـبروا وصـابروا ورابطوا واتقوا الله لعلـكم تفلحون » .

والرباط حصن منيع للتعبـد ، ومسلحة ، ومركز تدريب حربى عنيف للجهاد والغزو، ولايعرف المؤرخون على التحقيق موضع هذا الرباط الاول لزعماء الصنهاجة ومبعث دولة المرابطين العظمى .

انضم الى الفئة القليلة من العباد المجاهدين ، كل من تاب عن مسلك الصنهاجة ، حتى بلغوا الالف عدا ، فقرر عبـد الله بن ياسين الخروج بهم لاخضـاع بربر الصحراء لصرامة الشريعة الغراء .

وأصبح الالف رأس الحربة لمجموعة مترابطة ، تالفت

من قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ، واستولت على سلجماسة ، فواحات الجنوب الغربى فالسوس الاعلى والادنى .

كان جهادا شاقا مكللا بالظفر ، وان سقط فى ساحته القائد يحيى بن ابراهيم وأخوه أبو بكر والراس المدبر لجمع شمل المرابطين : عبد الله بن ياسين .

وفى عام ١٠٦٠ م بلغ المرابطون سهول الاطلانطى بزعامة يوسف بن تاشفين الذى جمع فى شخصه بطولة الاميرين المحاربين ، وعقل المدبر : عبد الله بن ياسين .

تولى يوسف بن تاشفين الزعامة فى سن الخمسين ، وحكم دولة المرابطين خمسين عاما أخرى ، حكمها بصرامة المتدين القانت ، واتساع أفق القائد وحيلته ، وقد رأى أن يقيم مركزا لدعوته وقيادته عند أقدام جبال الاطلس فكانت مراكش ، انشأها سنة ١٠٦٢ م ، ومنها أخذ يستولى على المغرب الاقصى كله ، ومساحة واسعة من المغرب الاوسط (الجزائر) ، ولم يتخل عن تحركاته نحو السنغال جنوبا ، فلم يحل عام ١٠٨٦ حتى كانت دولة الملثمين قد امتدت من بعض الجزائر شرقا ، حتى المحيط الاطلسى غربا ، ومن السنغال جنوبا حتى بلاد الريف المطلة على بحر الزقاق شمالا .

وفى ذلك العام عبر يوسف بن تاشفين وجيشه الى عدوة الاندلس ، واحتل الجزيرة الخضراء لتموينه ، وضمانا لخط مواصلاته مع المغرب ، وكان الفونسو السادس ، رئيس الحلف القشتالى ، قد أقسم ليحشدن من الجنود بعدد شعر رأسه ، حتى يبلغ بحر الزقاق ويزيح الاسلام عن شبه الجزيرة الايبرية قاطبة.

كان عبور ابن تاشفين ، زعيم المرابطين الملثمين ، و « أمير المسلمين » الى العدوة تلبية لاستنجاد المعتمد

ابن عباد صاحب أشبيلية ، وهنا نورد واقعة مؤثرة استشار فيها المعتمد ابنه الرشيد أبا الحسن عبد الله قائلا : « أنا فى هذه الاندلس غريب بين بحر مظلم ، وعدو مجرم ، وليس لنا ولى ولا ناصر الا الله تعالى . وان اخواننا وجيراننا ملوك الاندلس (أى الطوائف) ليس فيهم ولا يرجى منهم نصرة ولا حيلة ان نزل بنا مصاب ، أو نالنا عدو ، وهذا اللعين ادفنش (الفونسو) وقد أخذ طليطلة من ابن ذى النون بعد سبع سنين ، وعادت دار كفر ، وها هو قد رفع رأسه الينا ، وان نزل علينا كما نزل بطليطلة ، فانه ما يرفع عنا حتى يأخذ اشبيلية ، ونرى من الرأى أن نبعث الى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز ، ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، اذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف لحاؤنا ، وتدبرت بل وتبردت أجنادنا ، واجتبتنا العامة والخاصة » .

اجابه الرشيد : « يا ابت ، اندخل علينا فى اندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا » .

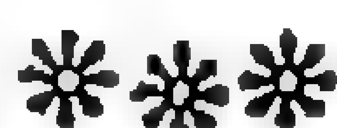
قال ابن عباد : « أى بنى ، والله لايسمع عنى أبدا انى اعدت الاندلس الى دار كفر ، ولا للنصارى لتقوم على اللعنة فى منابر الاسلام ، مثلما قامت على غيرى ، وحرز الجمال عندى ، والله ، خير من حرز الخنازير »

وكان من أمر نجدة أكبر المسلمين ابن تاشفين لابن عباد ان تم للأندلسيين والملثمين المرابطين الانتصار الساحق الماحق على الادفنش وجيشه الجرار فى معركة كبرى تعرف « بالزلاقة . » .

واذا كانت المحنة تربط الناس برباط الاخوة فى السلاح ، فالنصر كثيرا ما يعيد الى النفوس توجسها وحزازاتها النائمة (راجع ختام الحرب العالمية الثانية

.. وما بعدها .) وقد حاول أهل الشر فى الفريقين المرابطين والاندلسيين ، الايقاع بين ابن تاشفين وابن عباد ، واستطاع الرجلان الكبيران ترك امر ذلك حتى يأتى الله امرا كان مفعولا .

وواقع الامر ان أمير المرابطين كان قد أحس بما يملأ نفوس الطوائف من اثرة وحرص على ملكهم بأى ثمن، كما رأى فى ترفهم وترديهم فى الملذات الحسية وارتكاب المعاصى ما تمجه نفس البربرى المتقشف ابن الصحراء صادق العقيدة ، وادرك ان من واجبه مستقبلا الضرب على أيدى أولئك الصغار المتناحرين على فتات ممالكهم. فعاد الى الاندلس المرة تلو المرة حتى انتهى الى الاستيلاء على ثغورها .



وأورث يوسف بن تاشفين ابنه دولة كبرى امتدت فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى من الجزائر حتى المحيط الاطلنطى ، ومن سرقسطة فى الاندلس وجزائر البليار شمالا حتى السنغال جنوبا .

خمسون عاما قضاها المرابط الاعظم فى جهاد وغزو وحرب وتدبير سياسة ، وتنظيم ملك واسع ، واقامة منشآت دينيــة ومدنية فى مراكش ، وفاس ومكناس وتلمسان ، وغيرها من بلاد المغرب الاقصى والاوسط .

ويطيب لى أن أختم هــذه الفذلكة الجادة بدعابة قد تكون من آثار التندر على قصور فهم ابن تاشفين أمير المسلمين البربرى للسان العربى :

فقد ذكر ابو اليد الشقندى فى رسالته عن فضائل الاندلس ، ان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية كتب الى يوسف بن تاشفين ، بعد انصرافه الى حضرة ملكه ، رسالة تمثل فيها بشعر ابن زيدون :

بنتم وبنـا فما أبتلت جوانحنـا
شـوقا اليكم ولا جفت مآقينـا
حالت لبعـدكم أيامنا فغـدت
سودا وكانت بكم بيضـا ليالينـا

فلما قرىء هذان البيتان على كبير المرابطين ، قال : يطلب منا جوارى سودا وبيضا .

فأجاب القارىء : « لا يامولانا ، ما أراد الا ان ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا ، لان ليالى السرور بيض، فعاد نهاره ليلا ، لان ليالى الحزن ليال سود » .

قال يوسف : والله ، منيح . اكتب له فى جوابه : ان دموعنا تجرى عليه ، ورءوسنا توجعنا بعده ..

عظيم عظماء صنهاجة بين المغرب والأندلس

ختمت الفصل السابق بمداعبة رجل البربر العظيم و « أمير المسلمين » يوسف بن تاشفين ، مؤسس وحدة المغرب الاقصى ، تلك الوحدة التى صقلت شعبه ، وميزته بوضع خاص على بقية شعوب المغرب الاسلامى وفى هذا يقول المستعرب الفرنسى ، المؤرخ العلامة ليفى ــ بروفنسال :

« هناك حدود لم تتغير اطلاقا فى مجموعها ، تفصل المغرب الاقصى عن بقية شمال افريقيا منذ قرون عدة ، وليست هذه الحدود مجرد حاجز طبيعى ، أو سلسلة من الجبال ، أو مجرى مياه ، وانما هى ، شأنها فى ذلك شأن الحدود التى تقوم بين الدول ، سياسية بوجه خاص ، فهى تحدد على الاقل فى نطاقها الشمالى أقصى النقط التى بلغها التقدم التركى بالجزائر فى العصر الحديث .. وكذلك يوجد الى الشرق فيما بين المغرب الاقصى وبقية الشمال الافريقى ، فاصل طبيعى ، ومن المستطاع ادراك ما بين القطرين من فوارق فى الكيان الجغرافى والمناخ ، وبالتالى فى نوع الحياة التى يحياها السكان .

« أما الاختلافات الاجتماعية والسياسية ، فلا يمكن انكار وجودها رغم الوحدة الدينية فى المغرب كله ،

ولـكن هـذه الاختلافات لم يبدأ ظهورها فى التاريخ الا منذ نهاية العصر الوسيط . أى من اللحظة التى صارت فيها بلاد المغرب الاقصى الدولة الوحيـدة المستقلة فى شمالى افريقيا ، والدولة الوحيـده التى لم تقع تحت سلطان دوله اسلامية اخرى .. ففى ماضى بلاد المغرب الاسلامى ، تؤلف تلك البـلاد مجموعة منفردة بذاتها منذ أقدم عصور تاريخها .

« . . . كان يسيطر على تاريخ المغرب الاقصى دفع مزدوج من الفاتحين ومؤسسى الدول ، دفع المرابطين، ودفع الموحدين ، وقد كان لهذين اللفظين.. حق الذكر فى لسات أوربا منذ زمن بعيد . . . أظهر امارة دالة على الدهشة التى أصابت أمراء النصارى وملوكهم فى شبه الجزيرة الايبرية حيال ما لا سبيل الى صده من سطوة أولئك البربر الذين راحت جماعاتهم الواحـدة تلو الاخرى ، تنزل بهم الهزائم المدوية فى أوربا ذاتها . . فالمرابطون والموحدون يدوى اسماهما كأنهما من أسماء الرعب فى مصنفات التاريخ اللاتينية التى تروى أخبار الاسترداد ..

« . . . فالمرابطون ، أولئك الملثمون أبناء الصحراء الذين لم يلبثوا أن تهذبت نفوسهم بحيث اضطلعوا بدور الملوك الصيد ، ثم لم يلبثوا أن تأثروا بالحضـــارة الاسبانية فى الاندلس ، ولم يكن هـذا شـأن الفارس البربرى العظيم يوسف بن تاشفين ، وانما كان شـأن ابنه على بن يوسف الذى استهل حكمه بحقبة طويلة من الرخاء والازدهار . . . لقـد كان اسـم على بن يوسف ، منذ توليه امارة المسلمين (سنة ١١٠٦ م) ولم تتجاوز سنه الثالثة والعشرين ، يذكر على الفين وثلاثمائة منبر فى مساجد المغرب الاقصى والاندلس ،

وامتد سلطانه من بجاية (بالجزائر ، وكانت تسمى أيام الاستعمار الفرنسى : بوجى) الى السوس الاقصى ، ومن تافيللت الى السودان ، كما كان يخضع له جنوب شبه جزيرة ايبريا بأجمعه ، ويمتد حكم عماله الى جزر البليار ، وذلك كله بفضل جهاد أبيه يوسف بن تاشفين. وكانت دولة المرابطين فى أوجها ، والاسرة البربرية تزداد على مر الايام رقة وترفا بحيث صدق ما قيل فى هذا العصر من ان الثقافة الاندلسية سادت فى المغرب الاقصى » .

ذكرت فى الفصل السابق كذلك كيف دخل يوسف ابن تاشفين بلاد الاندلس ، والظروف التى دعت أن يستنجد به المعتمد بن عباد ، صاحب اشبيلية ، وما انتهت اليه معركة « الزلاقة » (ساكر الياس ، عند مؤرخى الافرنج) من انتصار المرابطين الحاسم ، هم والاندلسيون ، على حشود الحلف القشتالى بقيادة الفونسو السادس . ولقد وصف صاحب « الحلل الموشية ، فى ذكر الاخبار المراكشية » يوم الزلاقة ، قائلا : «كان يوما لم يسمع بمثله منذ اليرموك والقادسية فياله من فتح ، ما كان اعظمه ، ويوم كبير ، ما كان أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقتها ، وعادت ظلمة الحق الى أشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتزت بها رؤى الاندلس » ، وفى أول هذا القول مبالغة كاتب قاصر المعرفة بأيام الاسلام فى غير اليرموك والقادسية .

غادر ابن تاشفين الاندلس ، وقد وضع فيها ثلاثة آلاف مقاتل من الملثمين تحت تصرف ابن عباد ، صاحب اشبيلية ، ولم تفت هزيمة الفونسو السادس فى عضده ، فان حركة الاسترداد المسيحى تمثل المكابدة

والعزيمة والاصرار ، لا تفلها السنوات انتصارا أو هزيمة ، لقد قرر الاسبان طرد المسلمين من شبه الجزيرة مهما طال الزمن .

اتجه « الادفنش » الى شرقى شبه الجزيرة يغزو ثغورها ، وينشر الخراب فى ربوعها وحقولها . ولم يمض على هزيمته فى « الزلاقة » أكثر من عامين .

فقدم على كبير المرابطين بحاضرته مراكش وفد من تلك الثغور الشرقية ، من بلنسية ومرسية ولورقة المهددة بالغزو القشتالى ، يشكون اليه حال بلادهم ، وعبث « الروم » فيها ، كما قدم اليه ابن عباد ، فلم ير يوسف بن تاشفين مندوحة عن الاستجابة ، وعبر بحر الزقاق مرة ثانية عرف فيها حقيقة ملوك الطوائف، وحزازتهم وفلاكتهم ، ولم يستنجد به ابن عباد لمحاربة القشتالية فحسب ، بل ليساعده على استرجاع ثغر مرسية الذى استولى عليه دعى من الادعياء اسمه ابن رشيق .

كانت خطة ابن تاشفين تسديد هجومه على حصن بشرقى الاندلس يحتله الاسبان ، ويهددون به الثغور الشرقية ، لم ينجح المسلمون فى استرداد الحصن ، مصدر الخطر الداهم على تلك الثغور .

لقد اخطأت حين زعمت فى الفصل السابق بأن المحنة تقرب بين الافئدة ، وكان أخلق بى أن أضيف : فى الظاهر ، ولا أثر لها على ما فى السرائر ، وكان فشل المسلمين أمام الحصن فاتحة مساجلات واتهامات وخلافات بين ملوك الطوائف ، يتراشقون بالعتاب والسباب فى حضرة ناصرهم « أمير المسلمين » الملثم ، الذى أمر برفع الحصار ، ثم قفل عائدا الى مراكش حيث تناهى اليه ان صاحب غرناطة توالس مع مندوب الادفنش

مقابل مبلغ من المال له صورة ، وأن أبن رشيق ، مغتصب مرسيه من ابن عباد تعاون مع النصارى فى خلال حصار المسلمين للحصن المنيع .

وهنا قرر البطل البربرى العودة الى الاندلس للمرة الثالثة ، دون استدعاء أو استنجاد من أولئك الملوك الهلافيت ، وفى عزمه الاطاحة بهم ، وجمع كلمة شعب الاندلس وشعب المغرب تحت زعامته : عزل ونفى صاحب غرناطة وصاحب مالقة ، وأقام ابن عمه على رأس مجموعة جيوش اربعة من المرابطين ، للقضاء على ملوك الطوائف قاطبة ، فحاصر اشبيلية وقبض على المعتمد بن عباد ونفاه الى المغرب ، واقتحم بطليوس واسقط صاحبها الذى قتل هو وابناه ، وفتح المرابطون قرطبة ، والمرية ، ومرسية ، ورندة .

قال يوسف تاشفين : « وانما كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة (الاندلس) أن نستنقذها من أيدى « الروم » ، لما رأينا استيلاء هؤلاء على أكثرها ، وغفلة ملوك المسلمين ، واهمالهم للغزو، وتواكلهم ، وتخاذلهم وايثارهم الراحة ، وانما هم وأحدهم كأس يشربها ، وقينة تشنف أسماعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لاعيدن جميع البلاد الى المسلمين ، ولأملأنها على الروم خيلا ورجلا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش، انما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبى دعوته . . . »

وهكذا قضى المرابطون الاعوام التى قامت فيهما مملكتهم فى جهاد ضد الحلف القشتالى ، استرجعوا به أكثر البلاد التى أخرج عنها المسلمون ، وخضع لهم جنوب شبه جزيرة ايبريا بأجمعه ، وجزائر البليار . عند تمام المائة الخامسة من الهجرة (١١٠٦ م)

توفى البطل الملثم الاعظم ، وخلفه على بن يوسف بن تاشفين ولم تكن مراكش عاصمة المرابطين حينذاك اكثر من رباط للمحاربين يقول فيها ابن خلدون : « وجعل يوسف مدينة مراكش لعسكره ، ونلتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها فى جبل درن » ، وبنى بها مسجدا وقصبة (قلعة) .

وفى عصر ابنه على ، انفسحت رحاب المدينة بمبانيها حول قصبتها ، وكثر سكانها ، ولم يكن على ابن الصحراء القح مثل أبيه ، فقد ولد لام نصرانية من السبايا ، على شاطىء بحر الزقاق بمدينة سبته ، وتلقى ثقافة أندلسية ، ونشأ يحذو حذو خلفاء بنى امية العظام فى قرطبة ، وجاز الى أسبانيا بعد توليه بسنوات قليلة ، وتوفى الفونسو السادس بعد ذلك ، فتولى محاربة المسلمين الفونسو المحارب ملك اراجون (ارغون) وحليفه ملك قطالونية ، وانتصرت جيوش على بن يوسف فى معركة « اقليش » بقيادة أخيه تميم بن يوسف ، وكانت هزيمة منكرة ، لقى فيها حتفه الامير سانشو بن الفونسو السادس وزايدة المسلمة ، كنة المعتمد بن عباد ، كما قتل فيها عدد كبير من مقاتلة النصارى وكماتهم ، ومن بينهم سبعة اقيال يحملون لقب «قومس» (كونت) وعرفت المعركة بموقعة « القوامس السبعة» .

وقد أفضى هذا النصر بعلى بن يوسف الى أن يجىء ليضطلع بأعباء الحرب على رأس جيش عرمرم ، وهمه الاستيلاء على طليطلة ، فدمر ما حولها وحاصرها ولكنه ارتد عنها بعد شهر عندما فشل فى اقتحام أسوارها ، بينما وفق واحد من ذوى قرباه ، الامير سير بن أبى بكر فى حملة جردها على البرتغال تم فيها فتح مدائن شنترين وبطليوس وبورتو ولشبونة .

تتابعت حمــلات المرابطين فى حكم على بن يوسف ، ما بين توفيق وخذلان ، الا ان القوات المرابطة على حدود الشرك كفلت للأندلسيين أمنا لم يكونوا يعرفونه منــذ أمد بعيد ، ووجدت أسبانيا الاسلامية وقتئذ فى السلام متعة الحياة ، وأحست بالرغبة فى التفوق أمام أنظــار العالم الاسلامى .

وأهمية حكم على بن يوسف ــ من الوجهة الحضارية ــ هى توطد الاسلوب الاندلسى فى حياة المغرب الاقصى فنا وعلما وأدبا ، وقد أم بلاط أمير المسلمين بمراكش جمع غفير من نخبة الاندلســيين ، مفكرين وعلماء وفنانين وأدباء .

الا ان النفوذ الــكبير الذى كان يتمتع به الفقهــاء والعلماء فى الاندلس ، ومشاركتهم فى شئون الحكم ، امتــد الى المغرب وعاصمة المرابطين ، وكان لهــا أثر رجعية بغيضة ، وضيق فى الافق الفكرى ، تعصبا ضد من لم يشاطر أولئك الفقهاء معتقداتهم .

ومن دراسة العلامة جولدتسيهر نعرف ان انتصــار المذهب المالــكى (السائد فى المغرب الى اليوم) تم عام ١٠٤٨ م ، وكانت وحدة المذهب قد أضفت على الفقهاء المغــاربة التوقف والجمود ، فعزفوا عن الرجوع الى « الاصول » يستنبطون منها الاحكام ، ويتخذونها مادة للدراســة ، وقنعوا بكتب « الفروع » ، وهنــا يقول محيى الدين عبد الواحد المراكشى : « وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وانساق القوم وراء التقليد ، وانصرفوا عن النظر والاجتهاد .

ولقد وقعت حادثة ذات خطر من الناحية الفكرية ، بسبب سيطرة الفقهاء القاصرين المتزمتين ، هى احراق

كتب أبى حامد الغزالى ، فقـد كان الفيلسوف المسلم العظيم يستجب نزعات الفقهاء وحرصهم على الدنيـا ، وطمعهم فى المناصب المرموقة ، والضغن الذى يحملونه للعلماء الزهاد ، ولم يكن العلم فى نظر الغزالى مهنـة دنيوية تعود على صاحبها بالربح . وانما هو « عبـادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن الى الله تعالى» .

ففى عام ١١٠٩ م ، أمر على بن يوسـف « أمير المسلمين » ، باملاء الفقهاء ، أن تحرق كتب الغزالى ، وأحرقت نسـخة مجلدة من « احيـاء العلوم » أمام الباب الغربى لجامع قرطبة ، فى جمع حضره الفقهاء ، وصدر « الظهير » الاميرى فى جميـع أنحاء امبراطورية المرابطين باحراق كل ما يعثر عليه من مؤلفات الغزالى.

وكان هذا وغيره مما ينذر بخاتمة المرابطين وشيكا ، وصعود نجم « المهدى » ابن تومرت ، «فقيه السوس» و « داعية الموحدين » الاكبر ، وقيام دولتهم بزعامة عبد المؤمن بن على « سراج الموحدين » .

تحت شجرة الخروب

شخصية عجيبة تحمل اسم محمد بن عبد الله بن تومرت ، من قبيلة هرغة ، فخذ من أفخاذ المصمودية ، نشأ فى بلاد السوس الاقصى ، الى الجنوب الابعد من مراكش ، على سفح جبل انجليز .

« والسوس عرفت فى العالم الاسلامى كبلاد للسحرة والمشعوذين ، كما يعتبر أهل الجنوب بالمغرب الاقصى اساتذة فى علم العرافة والتنجيم والقوى الخفية ، يأمرون الجن ويكشفون عن الكنوز المخبوءة وراء الارصاد .. وهم الى ذلك قوم أولو فصاحة بسيطة تأخذ بمجامع الافئدة ، يخاطبون جمهور السذج الطلعة ، وجلهم يجيد لغتين ، يضمنون خطبهم ـ بالعربية أو بالبربرية ـ آيات من كتاب الله ، أو عبارات دينية تضفى على أعمالهم التى ينكرها الاسلام أحيانا صبغة من التمسك السطحى بالدين . . .

« وبربر المغرب فى جملتهم أهل صلاح وتقوى ، الا ان الاسلام يقتصر عندهم على جانبه الدينى فقط ، والدين مكرم فى المدينة ، لكنه لا يتدخل فى حياتها الخاصة ونظمها وميولها ، والمثل الاعلى الغامض الذى تحاول أن تترسمه » (العلامة بروفنسال) .

ومحمد ليس اسمه أصلا ، ولا عبد الله اسم أبيه ،

انما استعار الاسمين تيمنا وتبركا ، بعد تبحره في العلوم الاسلامية ، وقد نزح الى الشرق طلابا للمعرفة العليا ، وتعمقا واعيا للأصول .

فهو بربري قح ، وكان أبوه تومرت رأس قبيلته أو « امغارها » باللسان البربري، واسم جده لابيه وجليد، وجده لامه وابوركن .

بدأ رحلتـــه الشرقية يافعا في مطالع القرن السادس الهجري (١١١٠ م ؟) ، وانتهى الى بغداد حيث قرأ على علمائها شيئا من أصول الدين ، وسمع الحديث على أقطاب المحدثين ، ثم انتقل من بلاد الرافدين الى الشام والمظنون انه اجتمع هنـــاك بأبي حامد الغزالي ، وان صاحب « احياء العلوم » حين سمع منه بما جرى على كتبه من مصادرة واحراق ، باشارة الفقهاء على « أمير المسلمين » في دولة المرابطين القائمة في ذلك الوقت ، علق على الخبر بقول غير مثبوت : « ليذهبن عن قليـــل ملـكهم (أي المرابطين) ، وليقتلن ولد على بن يوسف ابن تاشفين » .

وجاز محمد بن تومرت بمصر في حكم الفاطمي، الآمر بأحكام الله ، وكانت الاسكندرية وقتذاك عامرة بالعلماء، مواطنين ومستوطنين ، من أمثال ابن ميسر ، والفقيه عبد الرحمن الغلاف ، وأبي بكر الطرطوشي ، وكان ابن تومرت يختلف الى مجلسه بخاصة .

قضى الطالب المغربي المجد نحو عشر سنوات في رحلته العلمية بالمشرق ، وقد أفعمت روحه ايمانا ، وعقـله فهما موسعا لدينه ، ثم قفل عائدا الى وطنه على مراحل فكان في كل مدينة يحل بها ، وعلى ظهر السفينة التي خطفت به الى المغرب ، لا يفتر لسانه عن وعظ الناس في عنف الشاب المتدروش، حتى قيل بأن ركاب السفينة

تبرموا بلجاجته فرموا به فى البحر ، حيث « أقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة لم يصبه شىء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا اليه من أخذه من البحر ، وعظم فى صدورهم ، ولم يزالوا مكرمين له الى أن نزل من بلاد المغرب الاوسط بمدينة بجاية »، (بوجى بالجزائر، كما كانت تسمى أيام الاحتلال الفرنسى) .

وما لبث فى بجاية هنيهــة حتى نهى النــاس عن « الاقراق (النعال) الزرارية ، وعمائم الجاهلية ، ولباس الفتوحيات للرجال والنساء » ، وفى عيــد الفطر خرج الناس ، رجالا ونساء يرفلون فى حلل العيــد ، فأقبل ابن تومرت بدير الضرب بهراوته فى ميسرتهم وميمنتهم.

وخرج أو أخرج الى أرباض بجاية ، حيث عاش فى زاوية يقضى النهار قارئا ، وشارحا ومعلما ، وفى المساء حين ينفض عنه الطلاب ، ينطلق من خلوته ، ويمضى الى مفتــرق من الطرق قريب ، يجلس تحت شــجرة خروب يردد ابتهالاته ، ويستغرق فى تأملاته وتهجداته.

ولقد سمعه بعض أتباعه ، ورفقاء رحلته ــ وهم على وجه الدقة : الحاج يوسف الدوكالى ، والحاج عبــد الرحمن ، وثالثهم أبو بكر الصنهاجى وكنيته البيدق، وكان مسجل أخبار الرحلة ، المتخيل خوارقها وكراماتها ــ سمعوه يقول : « الحمد لله الذى أنجز وعده ، ونصر عبده ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالب ، طوبى لمن عرفه ، وويل لمن أنكره » .

وصل هــذا الطالب من المغرب ، وكان متوجها الى المشرق ؛ مصدر النور والعرفان ، ولما عرف بأمر مواطنه الفقيه محمد بن تومرت ، قصده واستأذن فى الدخول عليه بالمسجد :

ــ ادخل يا شاب (دخل وتهيأ للجلوس بين الناس)

ـ ادن مني يا شاب (بلغ حضرته)
ـ ما اسمك يافتى ؟
ـ عبد المؤمن بن على
ـ واين تريد يافتى ؟
ـ المشرق ياسيدى ، ألتمس منه العلم .

قال ابن تومرت : العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق، وجدته بالمغرب يافتى .

بقي الشاب الى جانب أستاذه ، فلما جن الليل ، سمعه يقول : « لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على ، سراج الموحدين ! » .

بكى عبد المؤمن وقال : « يا فقيه ، ما كنت من شيء من هذا ، انما أنا رجل أريد ما يطهرنى من ذنوبى » .

قال ابن تومرت : « تطهرك صلاح الدنيا على يديك ؛ وطوبى لاقوام كنت أنت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك ، أولهم وآخرهم ، أكثر من ذكر الله يبارك لك فى عمرك، ويهديك مما تخاف وتحذر » .

وهكذا لازم الفتى أستاذه على رأس طلابه وأتباعه ، وسافروا من بجاية الى تلمسان ، فوجدة (آخر مدينة مغربية على الحدود الحالية بين المغرب الاقصى والجزائر) ، ومنها الى فاس حيث استقروا بواحد من مساجدها ، يقرأون على أستاذهم ، وينضم اليهم المريدون .

وكلما خلا ابن تومرت من الدرس ، خرج الى المدينة يسعى داعيا الى الفضائل ، والتمسك بأهداب الدين ، ونبذ البدع . ومن أخباره بفاس أن هاجم حوانيت آلات الطرب من « دفوف وقراقر ومزامير وعيدان ووروط (نوع من الرباب) ، وأربية (جمع رباب) وكيتارات ، وتولى هو وأتباعه تحطيمها » .

وكان مآلهم هنا ، مآلهم من قبل ومن بعد : الاخراج من المدينة .

واصلوا طريقهم الى مراكش عاصمة المرابطين الزاهرة ، ونزلوا بمسجدها ، وروى ابن الاثير المؤرخ : ان ابن تومرت رأى ذات يوم أخت واحد من أمراء المرابطين فى موكب من الجوارى الحسان عدة كثيرة ، وهن مسفرات كعادة صنهاجة ، تسفر نساؤهم ، ويلتثم الرجال ، فأمرهن بستر وجوههن ، وانهال مع أصحابه ضربا فى دوابهن ، ووقعت الاميرة عن دابتها .

وأيا كان حظ الحادث من الصدق ــ ولقد أذكر ان ابن بطوطة المغربى الطنجى، فى ذيبة المهل (حاضرة جزائر المحلديب ببحر الهند) ، وكان قاضيها ، أمر النسوة بستر أجسادهن العارية من الرأس حتى السرة ، فرفضن، واكتفي بأن يشترط دخول المتقاضيات الى ساحة العدالة محجبات بالحجاب الشرعى ــ فقد أبعد الفقيه الدرويش ومريدوه عن مراكش .

ونزح الجمع المشاغب الى الجنوب حتى بلغوا هرغة ، مسقط رأس استاذهم فى مضارب المصمودية بالسوس الاعلى ، حيث أقام الفقيه بين أهله وعشيرته يعظ ويتعبد ، ويستقبل وفود القبائل التى عرفت بأمره ، وقد سبقته اليهم شهرته .

تلك كانت نشأة الموحدين ، حسبما جاء فى مذكرات أبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيدق ، ممن صحب « المهدى » فى رحلته من المشرق الى المغرب .

ولا يفهم اصطلاح «الموحدين» على مجرد كلمة التوحيد، وانما كان شعارا للحركة التى أثارها ابن تومرت تقويما لقصور المرابطين فى فهم دينهم ، وحرص فقهائهم المالكية على التمسك بالفروع دون الاصول ، وقد

أخذوا فى تفسير صفات الله أتجاها ماديا ، حتى فشت بين اهل المغرب فى عصر المرابطين بدعه « التجسيم » ؛ واعاد ابن تومرت الحق الى نصابه فى أن صفاته تعلى من داته ، وان شريعه الاسلام تقوم على دراسة القران والحديث أصولا ، لا على تعاليم فقهاء يعتمدون على القياس والاجماع فحسب .

غادر ابن تومرت وأبناؤه القربون مضارب هرغة وتوغل فى مرتفعات السوس حتى محلة « نين ملل » (اى البئر البيضاء) حيث بايعه من اتبع هداه تحت شجرة خروب سنة ٥١٥ من الهجره ، وكان أول من بايعه تلميذه الاثير عبد المؤمن بن على ـ ولقب فقيه السوس بلقب « المهدى المعصوم » .

كانت دعوة « المهدى المعصوم » ، قد أخذت فى الانتشار من «تين ملل» ، (تينمل فى اللغات الاجنبية) الى سائر بلاد المغرب الاقصى ، وتحولت الى ثورة على دولة المرابطين وقد آذن نجمها بالافول .

وجهز المهدى ابن تومرت جيشا من الموحدين لفتح مراكش ، وخطب فيهم قائلا :

« اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، وادعوهم الى اماتة المنكر ، واحياء المعروف ، وازالة البدع ، والاقرار بالمهدى المعصوم ، فان أجابوكم فهم اخوانكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وان لم يفعلوا قاتلوهم ، وقد أباحت لكم السنة قتالهم » .

ونصب على الجيش تلميذه وخليفته عبد المؤمن قائلا : « أنتم المؤمنون ، وهذا اميركم » ولقب عبد المؤمن وخلفاؤه من بعده بأمراء المؤمنين .

كان عبد المؤمن ابن فلاح متوسط الحال من قبيلة بربرية الاصل تعربت منذ الفتح الاسلامى ، وقد تخلت

فى عهد ابن ثومرت عن التمسك بلغتها البربرية ، ولتميز وحدها من بين الجماعات المذكورة فى كتاب الانساب بأن الاسماء العربية لبطونها لا تقترن بما يقابلها فى الاسماء البربرية على ما يقول العلامة المستعرب بروفنسال .

كان أبو عبد المؤمن عليا بن علوى بن يعلى ، وزوجته كانت تعلو بنت عطية بن الخير ، وعبد المؤمن هو ثالث أبناء على بن علوى من السيدة تعلو ، نشأ على الحفظ والقراءة ، وطلب العلم بتلمسان ، ثم عول على الذهاب الى المشرق ، عندما تبين له ان التعليم فى المغرب لايشفى له غليلا ، ورأى عمه أن يرافقه فقصدا بجاية ليركبا منها أول سفينة تبحر شرقا ، ثم حدث ما سبقت الاشارة اليه من لقائه بفقيه السوس ، ابن تومرت « المهدى المعصوم » .

« ويمكن أن نتمثل هذا الشاب المجد ، ولا شك انه كان فيما يظهر لمن يراه ميسور الحال ، قرويا عليه مسحة من التمدن أشبه بأمثاله ممن تكتظ بهم لوقتنا الحاضر زنقات (أزقة) الاحياء القديمة بمدينة فاس ، اجتمع له التواضع والحياء اللذان يتسم بهما من كان فى سنه ، نفس يقظة طلعة ، متعطشة للمعرفة ، يقوم عمه منه مقام المرشد ، وهكذا انطلق عبد المؤمن فى الطريق الذى رسمه له القدر .

« كان قدرا عظيما أن يبدأ تحت قيادة روحية لشخصية ابن تومرت التى تستهوى من حولها الى أقصى حد ، ونفس تجمع بين البساطة والتعقيد ، ونزعة حالمة ، شخصية المصلح الدينى ، الا انه سياسى بلغ الغاية فى الالمعية والاخلاص ، يؤمن برسالته ايمانا يفضى به الى الرغبة فى تحقيقها بقوة عارمة .. ومجمل القول ان ابن تومرت كان شعلة ذكاء .. مع صفاء فى النفس

لا يخلو من اللياقة الحضرية والرقة فيمن حوله ، والخشونة والقسوة مع تقدير العواقب ، لين العريكة في الوقت المناسب ، لقد استطاع هذا البربرى القادم من الاطلس والعالم المسلم أن يصبح لدى مواطنيه شيخ القبيلة (الامغار) ، مسموع الكلمة يتخلى في خطبه عن أسلوب الاحتجاج ولو لحظة ليتحدث في بساطة دون التشدق بالفصاحة على طريقة القوم ، وله في الرسول أسوة حسنة . . . لم يكن فيه شيء من سجايا العربى الساكن في شبه الجزيرة ، وكان يعلم انه مهما فعل فان اللغة التي يكتبها لغة غريبة عليه ، ومهما كان من بلاغة رسائله فانه كان يفكر بالبربرية وبلسان البربر كان يخاطب قومه أبناء « تين ملل » ، أما العربية فكانت لغة المواعظ والخطب التي تزيد أتباعه الجدد ايمانا ، يؤثر في نفوسهم ايقاع العبارات الجميلة التي تتردد في آذانهم رنينا عذبا ، دون أن يحيطوا بها احاطة تامة ، اذ كانت البربرية ، لسانهم ، لغة الشجب واللعن ، ولغة الدعاة الذين يعلنون مقدم « المهدى المعصوم » من قرية الى قرية ، ومن واد الى واد .

« الاسلام في المغرب والاندلس - ليفى بروفنسال »

وكان الجيش المؤلف من أربعين ألف مقاتل ، المعقود لواؤه لعبد المؤمن ، خليفة « المهدى » تحت أسوار مراكش ... « كناطح صخرة يوما ليوهنها ، فلم ... الخ » ، وانتهت الحملة بهزيمة قتل فيها الكثير ، وأصيب « أمير المؤمنين » القائد بجرح عميق في فخذه الايمن تخلف عنه عرج ، فلما وصل الخبر الى ابن تومرت ، قال : « أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ » قالوا : نعم .. قال : لم يفقد أحد» .. وهذه في الحق مكابرة من داعية الموحدين الاعظم ، اخفى بها الجرح النفسى

العميق ، فقد مرض بعد شهور من هزيمة جيشه ، وتوفى بداره فى « تين ملل » ، ودفن بأرض المسجد الملاصق للدار ، وأخفى الاتباع موته ، ليواصلوا غاراتهم على المرابطين ، ثم أعلنوا وفاته بعد انقضاء ثلاث سنوات وبايعوا عبد المؤمن بن على ، أول خليفة فى أسرة الموحدين الحاكمة ، التى انتهت بالقضاء على دولة المرابطين ، وبامتداد ملكها الواسع على المغرب الكبير قاطبة ، من برقة حتى المحيط الاطلسى ، ومن بلاد السودان جنوبا حتى شمال الاندلس ، ودام ملكهم قرنا ونصف قرن ، أشاعوا الرهبة فى قلوب أعدائهم ، وعقد النصر لالويتهم فى أكثر من موقعة وموقع .

ثم حل قضاؤهم المحتوم - قضاء الدول طرا - ونذير انهيار دولتهم بعد موقعة رهيبة بينهم وبين نصارى الاندلس ، تعرف بمعركة « العقاب » ،وسيخلفهم على المغرب الاقصى بنو مرين ، فالسعديون ، وأخيرا العلويون ، وهذه هى الاسرة القائمة حالا ، والتى تحكم ما كان يعرف فى شبابى ببلاد مراكش ، منذ ثلاثمائة عام .

كانت موقعة « العقاب » بفحص « طولوصا » حدثا خطيرا فى تاريخ الاسلام بالاندلس ، نشأت على اثر حلف صليبى أقامه أسقف طليطلة رودريجو خيمينث من الامارات والممالك الاسبانية والبرتغالية ، ودعا اليه اقيال فرنسا وايطاليا لينضموا الى اخوانهم فى الدين بشبه جزيرة ايبريا (١٢٠٦ م) ، وكان بابا روما انوتشنتى الثالث المحرض الاكبر على توحيد كلمة الكاثوليكية ضد الاسلام ، بارك عدة كثيرة ممن وفدوا على اسبانيا من ايطاليا وفرنسا والبرتغال وقطالونيا .

اجتمعت فى طليطلة عاصمة قشتالة حشود هائلة من

محاربي تلك البلاد ، ومن فرسان الصليب « الاسبتارية والداوية » ، وغيرهم وغيرهم وزحفت تلك الجموع والجحافل من طليطلة فى ٢٠ يونية عام ١٢١٢ .

وخرج أبو عبد الله محمد الناصر بن أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، من اشبيلية فى العام نفسه على رأس جيش موزع الفكر ، مفكك العزيمة والعرى ، بلغ قرطبة ومنها الى جيان .

وزحفت القوات الصليبية جنوبا حتى بلغت واديا قريبا من بلدة طولوصا ، يعرف باسم « لاس نافاس دى طولوصا » ، (أى فحص طولوصا) ، واسمه فى المدونات العربية « العقاب » (الطائر) نسبة الى حصن اموى قائم بالفحص الذى دارت فيه المعركة .

انهزم المسلمون هزيمة نكراء ، وعاد محمد الناصر لدين الله ، « أمير المؤمنين » الموحدين الى اشبيلية ، ومنها الى المغرب ، واحتجب فى قصره بمراكش، كسير الفؤاد ، حتى قضى بعد سبعة أشهر من اندحار جيوشه .

وكان ابنه المستنصر بالله أبو يعقوب أول خلفاء الموحدين الضعفاء ، بويع بالخلافة فى السادسة عشرة من عمره ، ونشبت الفتنة فى كل مكان ، وبعد وفاته تفرق أمر الموحدين الى أكثر من خليفة ينازع « أمير المؤمنين » ، وكان آخرهم من بويع بالاندلس ، ومزاحمه الذى بويع فى المغرب ، وتحول المغرب مسرحا للقتال بين خلفاء الموحدين ، وعادت أرض الاندلس الى أسوأ مما كانت أيام ملوك الطوائف .

وتأبين الدول الزائلة لا يتأتى الا أن يعرف المرء بآثار العمران التى خلفها أمراؤها وملوكها .

نظرة .. فابتسامة .. فسلام .. فلقاء

عشقت المغرب الاقصى من أول نظـرة ، عنـد أول لقـاء (١٩٥٨) ، واعجبت بأعلام الفـكر المغربي فى اجتماعاتنـا بمؤتمر اللجان القومية لليونسكو بمدينـة فاس ، تم فى اللقاء الثقافى بمناسبة المهرجان الافريقى بالجزائر (١٩٦٩) واخيرا بجامعة لوفان (بلجيكا) ، الجامعة الـكاثوليكية العريقة التى استضافت مجموعة مختارة من الشرق العربى والمغرب ، ليحاضروا طلبـة الدراسات العربية بتلك الجامعة ، ويناقشـوا موضوع الساعة وهو « نهضة العالم العربى » (١٩٧٠)

وكانت رحـلتى عام ١٩٧١ من الاندلس الى المغرب توكيدا للألفة الحارة التى أشـعر بها نحو تلك البـلاد البعيدة وقد بهرتنى بتكوينها الجغرافى وجوها وتاريخها العجيب ، وآثارها ، وألوان سهولها ووديانها وجبالها ، وسواحلها الطويلة على الاقيـانوس الاطلسى ، والبحر الابيض المتوسط ، كما كانت تعلقا بشعبها الذى اجتمعت فيه خصائص تاريخه ، وصلاته الاندلسية ، والأجناس التى يتألف منها بيضا وسمرا ، بربرا وعربا ، ثم أثر قربه من أوربا فى تهيئته للحضارة الشاملة مع احتفاظه بشخصيته التى تفرض عليه التؤدة فى تطوره .

اننا فى مصر ، بقوامها الجغرافى المتناسق السهل ،

وبالعوامل الاخرى التي جعلت منا شعبا واحدا موحدا ، منذ فجر التاريخ ، ليصعب علينا أن نفهم معنى تماسك بلاد كالمغرب الاقصى لا تساعد تضاريسها ، ولا قبائلها وبطونها على هذا التماسك ، فمن سكان الجبال ، في بلاد الريف الى الشمال بمحاذاة شاطىء البحرالابيض، الى قبائل جبال الاطلس التى تمتد من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى : فتقسم المغرب الى شطر شرقى ينبسط سهولا وسباسب ودهاسا ، وشطر اوسط خصب ما بين وادى الملوية ووادى السبو ، وشطر الى الجنوب من جبال الاطلس ، بواحاته وسط امتداد الصحراء الافريقية الكبرى ، ويتصل بالسنغال وضفاف نهر النيجر .

بلاد الخصب والمحل ، والجفاف والمطر ، وجليد الجبال الشماء وثلوجها ، ومجارى مياهها – ويعرفونها بالاودية كما كانت تسمى بالاندلس – تنحدر الى البحر المتوسط شمالا ، والى الاطلنطى غربا ، ومنها ما لايعرف له مصب ، اذ تغيب مياهها فى غرود الجنوب الصحراوى وسباسبه .

بلاد الربيع المزهر ، والخريف المثمر بالفواكه ، منبت أشجار الصنوبر والسنديان والارز والدلب على سفوح الجبال ، وشجيرات العشب العابس قرب القمم ، والشطئان الرملية والصخرية الى مئات الاميال ، والامواج القصيرة ذات أعراف الزبد شمالا . والعاتية العالية تحركها رياح بحر الظلمات . شعب مختلط ، وان تميزت أجناسه ، والمؤكد ان الجنس الغالب – البربر – استعمر المغرب من اقدم الازمنة ، ولا يعرف العلم عن منبته سوى القليل الذى لا يشفى غليلا . .
ومن يدرى ، لعل كلمة السر فى أصل شعوب الشمال

الافريقى تقبع فى كلمة « ليبيا » ، حتى أن مصر ذاتها ترتد فى بعض أرومتها الى جنس ليبى عاش فيما قبل التاريخ يمرح فى الاحراج الواسعة أيام كانت الغزلان والسباع والتياتل والزراف تهيم وسط المراعى الخضراء قبل أن يتحول الجو ، ويتوقف الغيث ، ونمحل الارض ، ويأتى الماعز على كل نبت ، ويستوى جريان النيل فى واديه ، وبين شريطيه الاخضرين .

سكن الفينيقيون شواطىء الشمال الافريقى ، وأخلافهم القرطاجيون ، واحتلها الرومان دون التوغل بعيدا ، أو التصعيد فى الجبال ، وكل ذلك لم يكن فى تاريخ المغرب الاقصى شيئا مذكورا الا قليلا ، لم يترك من الآثار الا نزرا يسيرا ، أهمها ما نرى من بقايا « فولوبيلبس » الرومانية ، وهى « وليلى » اليوم الى الشمال من مكناسة ، والغرب من فاس .

أما الاسلام فقد طبعها بطابعه ، ونبت غرسه فى اراضيها ؛ وأينع فى السهل والحزن ، فى الوهاد والجبال لم يكن ذلك ميسرا فى مطالع الفتح ، على الرغم من اقتحام عقبة بن نافع الفهرى للشمال الافريقى كله حتى بلغ شواطىء بحر الظلمات . وانا لنتصوره ، على ماجاءت به أخبار الاولين ، وقد لكز فرسه يدفعه الى خوض ماء الاقيانوس حتى بلغ الماء ركبتى القائد العربى ؛ ثم رفع ناظرته الى أعلى يشهد ربه على البر بقسمه أن يحمل راية الاسلام حتى مغرب الشمس ، بكل ما وهبه سبحانه من قوة على الفتح والجهاد فى سبيل الله ، وبث فى قلبه من الايمان بالشهادة .

ويبدو ان البربر وقد استمعوا الى كلمة الاسلام من القائد العربى وصحبه ، لم يحفظوا عهده ، ولا استنارت بصائرهم بالنور الجديد ، فارتدوا الى بداوتهم وعقائدهم

« الانيمية » ، بعد رحيل عقبة عنهم فى القرن السابع (٦٨٣ م) .

انما القرن الثامن هو عصر الاسلام الظافر على طول المغرب الكبير قاطبة حين اجتاحه موسى بن نصير ، واستولى على المغرب الاقصى من طنجة فى الشمال الى تافيلت فى الجنوب ، ثم أقام مولاه البربرى طارق بن زياد حاكما على طنجة ، وقائدا على جيش من البربر عبر بحر الزقاق الى اسبانيا ، وشتت جحافل القوط ، وحقق أول فتوح الاسلام فى الاندلس .

وكان لادريس بن على ، وابنه ادريس الثانى الايادى البيضاء على تثبيت قواعد الدين الحنيف فى المغرب الاقصى ، وعلى انشاء حاضرته الاولى فاس ، وما برحت عاصمته العلمية والدينية والادبية .

ولاذكرن فى رحلتى الاخيرة زيارة مسجد ادريس بن ادريس بفاس ، وبلوغى باب مقامه امتلأ بالمريدين قعودا يتلون آيات الذكر الحكيم جماعة ، لم اجتز عتبة المقام فليس فيه مكان لقدم ، وقفت ببابه أقرىء صاحبه السلام وأتلو فاتحة الكتاب .

ووقوفى بمعارج الجبل ، فى الطريق من مكناسة الى وليلى لمشاهدة آثار « فولوبيليس » الرومانية ، أرفع البصر الى مدينة المغرب المقدسة ، واسمها من اسم وليها المدفون فى أرضها : مولاى ادريس ، صاعدة فى الجو ، شامخة تتبوأ كتف الجبل ، كأنها أوكار النسور

وكيف لا يكون عشقا ان أعكف منذ عودتى على دراسة حياة تلك البلاد فى ماضيها وحاضرها ، لا مجرد استزادة من معارف ، بل لاطيل أيامى فى « المملكة السعيدة » باستيحاء رحلتى القصيرتين اليها .

جلست وحدى على المقهى الكبير فى مواجهة دار

البريد بالرباط ، ساعة وبعض ساعة ، لا أمل النظر فى تلك العصرية الى السائرين زرافات ووحدانا ، رجالا ونساء ، من كل سن ، مع غلبة الشباب على الشيوخ — على عكس ما أحزننى بالجزائر هبوط النسبة عن هذا المستوى ، فكرتنى بأكرم الضحايا الذين سقطوا شهداء وأبطالا فى حرب التحرير الطويلة — وانها لعادة قديمة ألفتها فى كثير من البلاد التى زرتها ، أن أطالع فى الزى والسيماء ، وفى ايقاع الحركة والسير ، صورة الحياة القائمة ، أستشف من ورائها قدرا ثمينا من روح البلد الذى أجهل ، وما بلغته من أدوار التطور .

وفى الرباط عاصمة المملكة المغربية الشريفة ، كنت أشهد هذه الاطوار وكأنها « فلاش باك » لما عرفته منذ الحلم ، وسايرته فى تطور مصر ، من الحبرة والبرقع والملاية اللف ، والعربة الكارو وسوارس والترام المهكع ، وأوائل السيارات والاوتوبيسات ، وكرنفال الازياء ، والحفاء ، وعفريت الليل الحافى يجرى بمشعله ليضىء فوانيس غاز الاستصباح . . . الى ما نراه اليوم فى القاهرة الكبرى ، عاصمة افريقيا . . . لابد ان كانت الظاهرة ذاتها تحدث فى المغرب ، وان تفاوت الزمن ، متقدما فى مصر ، متأخرا فى غيرها من بلاد الشمال الافريقى .

فى الرباط ، من مقعدى على الحادة الواسعة ، احسست كأنى بالقاهرة فى صميم العصر الحاضر ، الا فيما يختص بالعنصر المحافظ ، وما برح ظاهرة مميزة فى عاصمة المغرب ، وقد قارب على الاختفاء تماما من وسط العاصمة المصرية . فى فاس ومكناسة أوضح من الرباط ، وفى مراكش كأنها أيام مولد السيد أحمد البدوى بطنطا ، ولا أنساها فى العشرينات ، ولم تردم الجعفرية بعد ،

وكان حفل المولد يقام فى ارض فضـــاء نعبر اليهـا على كوبرى سيجر ، حلقة الحشر حول مركز « الصارى » الاعظم .

الفتيان الجالسون حولى بالمقهى ، والعابرون بى ، طوال شعر الراس ممطوطو السوالف ، هم شـــبابنا بالتمام والـكمال ، وان كانوا أكثر حدة وعصبيــة ، وأنشط خطوا ، والفتيات هن فتياتنا وان كن أكثر رزانة وخفرا ، ولـكن المحتفظين بالزى المغربى : الجلابة ذات الـكبود ، للرجال والنساء ، بالنسبة الى لابسات المينى والماكسى والبنطلون ، والى لابسى البنطلون المحزق كأنه المايوه ، اظهر مما تراه فى القاهرة ، هذا الى ان الحجاب الابيض والازرق أكثر اصرارا على البقــاء فى المغرب ، بينما البرقع بالعروسة وبغيرها قـــد اختفى أو كاد فى شوارعنا الحديثة ، هذا فى الواجهة الحضارية لبلدينا.

أما الواجهة القومية « الفولـكلورية » فكانت حيــة منتعشة بعاصمة الجنوب : مراكش الرائعة ، أعادتنى

الى ماضى البعيد فى موالد السيدة زينب ، والحسين ، والحسينية ، والمحمدى ، وذلك عندما قضيت العصرية أتجول فى ميدان مراكش الشهير باسمه المخيف « جمعة الفناء » : ما بين الحاوى بألاعيبه وطلوع زرابينه وحياته وثعابينه ، والشاعر بربابة وبغير ربابة ، ولاعب السيرك على القارعة، وجواسق الباعة، وحامل الماء « الحملى » الذى اختفى من القاهرة منذ طفولتى ـ وهو فى مراكش يذكرنى ببطـل أوبرا « النــاى الســحرى » لموزار : « باباجينو » المـدندش ، وبمصــارع الثيران ، بقبعة واسعة يتدلى منها « الصفا » والجلاجل ذات الجرس النحاسى ، يستجيب لضربات صاجاته وكاساته تنادى العطاشى ، وقارىء البخت ، وضارب الرمل والودع ،

وحـلاق الهواء الطلق يصفف اللحية ، ويحلق الراس زلطة .

سرحت فى « المدينة » ـ كما كانت تسمى فى صفرى احياء الحمزاوى ، والتربيعة ، وخان الخليلى ، وتحت الربع ، والغورية ، والخيمية ، والسروجيـة ، وحارة اليهود ـ كل ذلك فى مراكش ، وفاس ، ومكناسة ، وغيرها ، ما فتىء حيا صاخبا لم يغيره الزمن كثيرا ، بينما العمران فى عواصمنا يعبث بقاياه ، وكأننا نأنف من بقائه .

وجامع « الـكتبية » بمراكش لم أر حوله أثرا لمصدر اسمه ، وان ذكرنى بكتبية الحلوجى ، وكانوا فى صغرى حانوتا لصق دكان ، يجلس فيها الوراقون القرفصـاء أو يتربعون فوق أرضية خشبية تعلو بأكثر من ذراع عن ارضية الشارع .

أهم المدن التى زرتها فى رحلتى الاخيرة هى : فاس ، ومراكش ، والرباط ، ومكناسة ، توصف هناك بالحواضر الملوكية : تحمل تاجا فوق « رنكها » أو شعارها ، يعلوه خاتم سليمان ، النجمة المخمسة الخضراء التى تتوسط الراية المغربية . « فاس المحمية » كانت عاصـــمة الادارسة والمرينيين والسعديين ، و «مراكش الحمراء» كانت حاضرة المرابطين والموحدين ، دون أن ترتد فاس خطوة الى الوراء ، و « رباط الفتـح » انشـأها أول الموحدين عبـد المؤمن « قصـبة » أى قلعـة وقصرا ومسجدا ، ووسعها خلفاؤه ، واختار مولاى اسماعيل « مكناسة الزيتون» عاصـــمة لملكه (ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر) ، ثم عادت الرباط حاضرة المغرب فى حكم خلفـائه من أسرة الاشراف العلويين ، سلاطين المغرب وملوكها الى يومنا هـذا .

ان جمال المغرب الاقصى ، واقبال السائحين عليه من كل صوب وحدب ، وحسن استعداده لاستقبالهم ، لم أر له مثيلا فى بلاد الشمال الافريقى ، وما برحت مصرا على ان الاندلس تفرض على زائريها اتمامها بزيارة المغرب الاقصى ، اذا راموا أن يعيشوا الاندلس الاسلامية عينا لا أثرا .

الفن الأندلسي المغربي

« البربر قوم ذوو همة وباس ،
حباهم الرب من فضله بكثير »
ابن خلدون

لا أدري مدى تحمل القارىء لـكل الفذالك التاريخية التي حرصت فيها على أن أسبر أعماق شعب البربر ، ذلك الشعب العجيب ، الذي لم يكن يقدر له أكثر من تناحر قبائله وأفخاذها وبطونها ، تنحدر من سفوح جبالها لتتولى تقشيط السهول والفحوص ، وتعود منها بالاسلاب .

لم يقـدر عليهم الفينيقيون ولا القرطاجيون ولا الرومان ، ولعل « وليلى » (فولوبيليس) كانت أبعد ما بلغه الاحتلال الروماني للمغرب الاقصى ، ولقد عرف أبناء روما المستعمرون المنظمون ، بأمر القوة القتالية للبربر ، مع الاحتمال والتقشف ، فجندوا منهم فرقا (ليجيون) من المشاة والركبان ، تؤمن لهم الخلفية الجبلية الخطيرة .

أقول : لم يكن يقدر لعشائر البربر ، ولا لفلاحي السهول ، أن يقوم لهم ذكر تاريخي مميز ، لولا أن ضمت شملهم شريعة نزل بها على جاهلية شبيهة ، كتاب الحياة الدنيا والآخرة ، تؤمن بالوحدانية ، وتهدى القوم

الى صراط مستقيم وانسانية سامية ، شريعة لا اسرار فيها ولا أحاجى ، ولا رموز .

تاريخهم منذ ضحى الاسلام شاهد على حقائق باهرة ، وهى أن فرسان العرب القادمين من الشرق بقيادة عقبة بن نافع ، ثم بزعامة موسى بن نصير ، قد جعلوا من فتوحاتهم بالمغرب حملات أضاءت نفوس البربر البدائيين بنور الاسلام ، ثم كان للعلوى مولاى أدريس ابن عبد الله ، المجاهد ضد العباسيين واللاجىء بعد هزيمته فى المشرق الى حمى البربر فى المغرب ، بمحلة « وليلى » ، والممهد هو وابنه لانشاء أجمل وأرسخ حاضرة مغربية على جانبي وادى فاس ، أثر أعمق فى نفوس القبائل البربرية من كل فتح وغزو ، فثبتت قواعد الاسلام ، وتمكنت من نفوسهم .

وواجبنا ونحن نطرق حضارة المغرب الاقصى ابان العصر الوسيط ان نؤكد ما تدين به العشائر المغربية لحضارة الاندلس ، والاصل فيها هو قيام الدولة التى اسسها عبد الرحمن الداخل الاموى فى قرطبة مستوحيا حضارة أسرته فى الشرق الاسلامى ، واذا كان ملوك الطوائف قد انتهوا بالدولة الاموية الباهرة فى الاندلس، الى التفاشل والتفسخ ، مما شجع أسبانيا المسيحية على القيام بحروب الاسترداد من شمالى شبه الجزيرة ، فقد تمكنت دولتا المرابطين والموحدين من ايقاف الزحف القشتالى الارجونى اللاونى الى مدى من الزمان والمكان .. وبذلك تم اخصاب المغرب بحضارة الاندلسيين ، واضحى الحكم الاسلامى ، قبل جلائه نهائيا عن شبه الجزيرة ، كلا لا يتجزأ ، يجمع بين الضفة الشمالية لبحر الزقاق ، وضفته الجنوبية ، اى بين عدوة الاندلس وعدوة المغرب .

ومع ماتدين به الدول الاسلامية فى المغرب والاندلس لحضارة الشرق الاسلامي وهو المنبع والاصل ، فان طبيعة الناس والارض والسماء ، وما تم من الاختلاط الوثيق بين المسلمين ، عربا وبربرا وموالى ، وبين الاسبان، سواء من أسلم منهم أو من التزم بمسيحيته ، قد طبعت المغرب وأدبه بخصائص مميزة ، وشخصية فريدة وسط الفنون الاسلامية ، وهى ظاهرة معروفة فى تنوع الفنون الاسلامية ما بين أواسط آسيا ، وشمالى الهند وبلاد ما وراء النهر ، وهضبة ايران ، ووادى الدجلة والفرات ، وسوريا ومصر ، والمغرب والاندلس .

وسنختار من ذلك التزاوج بين حضارة الاندلس وحضارة المغرب بعض الامثلة التى توصف فى تاريخ الفنون بالفن « الهسبانو ـ موريسكى » ، أى الفن « الاندلسى المغربى » اذا أردنا توحى الدقة التاريخية ، وذلك على امتداد تاريخ الدول التى نشأت بالمغرب الاقصى ، علما بأن الفن المغربى قد واصل طريق أصالته وخصائصه ، حتى بعد انتهاء الحكم الاسلامى بالاندلس خاضعا لسنة التطوير ارتفاعا أو هبوطا .

وامثلتنا مختارة من بين أهم منشآت الفن الاسلامى، وهى دور العبادة ، مساجد وجوامع وزوايا ، وما يتبعها من معاهد العلم ، والمدارس لاقامة الطلاب ، ثم عمارة التحصينات فى أسوار المدن وأبوابها ، وما يعرف «بالقصبة» ، وتعنى مجموعة القلعة والحصن والمسجد والقصر ، وعمارة الرباطات ، وأخيرا المنشآت الخاصة والعامة من قصور الخلفاء والسلاطين والامراء ، والبيوت والحمامات العامة والاسواق والقيساريات ، ولنترك جانبا فنون الزخرف فى الصناعات والحرف المختلفة .

ولقد اشرنا فى فصل سابق الى أثر الاندلس فى الموسيقي المغربية « الفنية » تمييزا لها عن الموسيقى الشعبية فى السهول ، المعروفة « بالجريهة » وينشدها الشيوخ والشيخات على نصوص باللغة الدارجة ، وعن موسيقى البربر : « اهيدو » فى جبال الاطلس الوسطى ، و « اهواش » فى الاطلس العليا .

ويدين المغرب الاسلامى لمشارقه فى فن الموسيقى ، حين خرج أبو الحسن على بن نافع ، المشهور بزرياب ، عن بغداد قاصدا قرطبة ، منشقا على أستاذه اسحاق الموصلى ، وقد تلقاه الاموى عبد الرحمن الثانى بالترحاب والنعم . ولم يقف دور زرياب عند الموسيقى التى ازدهرت بفضله فى بلاط الامويين بالاندلس ، فكان مستشارا خاصا للخليفة فى شئون الفن والاناقة (٨٢٢ م)

اجتمعت لزرياب ملكات الشعر والتأليف الموسيقى والعلم ، مقتفيا اثر الكندى أستاذه ، وزرياب هو الذى أضاف الى العود وترا خامسا ، وهو صاحب مدرسة فى الغناء يعتبرها الاوربيون أساسا لتدريب الصوت بتمرينات على التصويت « الفوكاليز » وهو واضع قالب التأليف الموسيقى الذى يبدأ بالنشيد فى نوع من التلاوة المنغمة ، ويتبع بالحركات ويختم بالاهازيج .

الا ان الموسيقى فى ممالك غرناطة واشبيلية وبلنسية قد تأثرت بالفن الاسبانى ، ونرجمت عن جو الدعة وهناء المعيشة وسط طبيعة كريمة خلابة ، وكانت اشبيلية مركزا لصناعات آلات العزف : القانون ، والعود والرباب والسلامية والناى والبوق ، وقيل فى المقارنة بين اشبيلية وقرطبة : « اذا مات عالم باشبيلية

حملت كتبه الى قرطبة حتى تباع فيهـا ، وان مات مطرب بقرطبة ، وأريد بيع آلاته ، حملت الى اشبيلية»

والاندلسيون هم مبدعو « الموشـحات » ضربا من الشعر المصوغ للغناء المقطعى ، و « الازجال » التى خرجت عن قواعد الفصـحى الى العـامية الاندلسيـة تختلط فيها العربية بالاسبانية ... والبربرية .

ويعزو عبد الرحمن بن خلدون ابتداع قالب الموشحات الى الشاعر عبادة بن القزاز (القرن الحادى عشر) ، والزجل الى ابن قزمان (القرن الثانى عشر) .

والموسـيقى الاندلسية انتقلت الى المغرب نتيجة للهجرات الـكبيرة التى اضطر اليها المسلمون واليهود نتيجة لحركات الاسترداد المسيحية .

فعند سقوط قرطبة (١٢٣٦م) ، هاجر نحو خمسين ألف مسـلم الى تلمسان ، ومع سـقوط اشبيليـة ، تقاسمت غرناطة ، والشمال الافريقى آلاف المهاجرين ،

كما تقاسمت غرناطة وفاس مائتى ألف مهاجر بعد ضياع بلنسية ، وتلقت تطوان سيل المهاجرين المسلمين ، وعلى رأسهم أبو عبد الله من بنى الاحمر ، آخر ملوك المسلمين فى الاندلس .

ولا مكان للزعم بأن المغرب الاقصى أخرج فى العمـارة طرازا يتفوق على ما ابتدعته قرطبـة ، أو القيروان ، وحتى القرن الحادى عشر لم يظهـر به ما هو جـدير بالذكر .

انما عصر المرابطين، أبناء لمتونة من بطون الصنهاجة ، هو العصر الذى استألف الفن الاندلسى (منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر) وأدل مثل على تأثر المغرب بالاندلس نراه فى جامع القرويين ، ومسجد الاندلسيين بفاس ، وما أسرع ما يدرك الزائر تأثر هذين بالمسجد

الجامع فى قرطبة ، وسواء لمست فى طراز الاساطين الضخمة وعقودها المفلطحة بدائية المقلد أو شخصية المستألف ، فانك حيال فن قرطبى ، ما فى ذلك من شك

وفى عصر الموحدين (منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر) — وكانوا أوثق صلة بالاندلس — يتفجر الفن الاندلسى — المغربى استلكتيات أو مقرنصات ، وقبابا وعقودا تبدو فى مساجد تازة ومراكش ، وحتى فيما بقى من مسجد « تين ملل » ، حيث دفن ابن تومرت فقيه السوس .

وهذا أبو يعقوب بن عبد المؤمن يقوم على انشاء مسجد اشبيلية الجامع وقد هدمه الاسبان ، وتمسك أهل المدينة بصومعته (منارته أو مأذنته) الكنز الغالى الى اليوم ، تحمل برج النواقيس لكاتدرائية اشبيلية ، اعظم كنائس اسبانيا ، وتعرف فى تاريخ العمارة باسم « الخيرالدا » .

وأكمل أبو يوسف يعقوب المنصور عمل جده فأتم قصبة مراكش ومسجدها الجامع ، وهو الذى اعتزم انشاء جامع من أكبر وأوسع جوامع الاسلام بمدينة الرباط، وأقام صومعته ، الشقيقة الصغرى «للخيرالدا» باشبيلية و « الكتبية » بمراكش ، ولم يتح له ان يرتفع بها الى غايتها ، ولا أن يكمل بناء الجامع ، فهو اليوم باحة بارحة فى فضاء الرباط ، رصت فيها الاعمدة، وتحمل المنارة المنقوصة المبتورة اسم « برج حسان »

وأروع المآذن أو الصوامع فى رأيى المتواضع هى منارة « الكتبية » ، بدأها عبد المؤمن وأتمها أبو يوسف يعقوب المنصور ، كاملة المعانى ، لم يشوهها برج أجراس ولا دوارة رياح (خيرالدا) ، بل تعلوها التفافيح الثلاث (جمع تفاحة) ، وهى كرات من معدن مذهب تلبس فى

صارى المنارة ، بأحجام تتناقص صعدا ، (بأقطار مترين، ومتر ونصف متر) ، قيل بأنها كانت فى الاصل من حلى زوجة المنصور ، جادت بها لتتوج عمل بعلها ، وأيا كان المعدن الذى صنعت منه ، فما برحت تضوى بانعكاس أشعة الشمس عليها ، فاذا مالت هـذه الى المغيب ، بدت فى الافق البعيـد جبـال الاطلس ، تتوج الثلوج قناتها ، تشرف عليها من علو أربعة آلاف متر قمة جبل « توبكال » .

وفن بنى مرين لا يقل فخامة وجمالا ، وقد امتدت دولتهم من الجزائر الى المحيط الاطلسى ، ومن أقصى الجنوب حتى أقصى الشمال فى الاندلس ولا تكاد مدينة فى المغرب تخلو من أثر مرينى عظيم : فى تلمسان وتازة وفاس ومكناسة وسالا ومراكش وسبتة وغيرها .

وحقق المرينيون فنا أندلسـيا مغربيـا رائعا فى « المدارس » أى مساكن طلبة العلم ، وخاصة تلك التى أنشأها السلطان بوعنان .

كان الموحدون بناة معاقل وبيوت عبادة ، أما المرينيون فقد درجوا على الحياة فى مظهـرها الاندلسى ، بيوتهم وقصورهم متعـة للبصر وكذلك مسـاكن النـاس ، والحمامات العامة ، والوكالات ، والبيمارسـتانات ، وأسـوار العيون ، والحصون ، أقيم كل ذلك بفضـل تبرتمبكتو ، بأيدى صناع حذاق فى البناء والزخرف ، قيل بأنهم كانوا يعملون على نغمات الموسيقى الغرناطية!

وسار من جاء بعد المرينيين على الدرب ، وان مالوا الى الاغراق فى الزينة والبرقشة والنقش ، واستعمال « الزليخ » الاخضر الفاقع زخرفا للواجهات والحيطان.

وأجـداث المرينيين والسعديين والعلويين ومدافنهم نماذج جميلة للفن المغربى الاندلسى ، وكذلك الاسـوار

والبوابات والقصبات تاسر الزائر بالوانها الخضراء ، وما اروعه مشهدا اذا وقف المســافر على مبعدة من فاس او مكناسة ليتأمل هذه الجواهر تحميها الاسوار العتيقة والابراج العابسة وسط الهضاب ، وترتفع فى سمائها الصوامع اللامعــة ، مربعة الاركان ، ما لم نتعود نحن اهل الشرق الاسلامى على رؤيته فى مآذن مساجدنا ، ولا فى بوابات أسوارنا ، الا فيما ندر .

عبور الحدود فراق

رعى الله اياما اذا سر غيرها   فان سروري بعدها متكلف .
ابن سعيد المغربي

لا معنى لعبور حدود البلدان عند ركاب الطيارات : الا أن تعلن المضيفة بمكاننا فى الهواء وقت المرور فوق التخوم ، وعرفت فى زمان مضى اجتيـاز الحـدود فى القطار ، فلم تزد عن دخول بوليس الحدود على الديوان ليبصم جوازات المســافرين ، يتبعه رجل الجمارك ليتناول الاقرار ، ويتفرس فى أوجه الجالسين ويتأمل الحقائب المرصوصة فوق الشبكة ، وقد يطلب انزال واحدة منها أو اثنتين ، ولا اذكر ان مفتش الجمرك بقى فى ديوان أكثر من بضع دقائق .

أما فى عربات النوم فانســانية مفتشى الجمارك ، وشرطة الحدود تأبى فى غالب الاحيان ايقاظ الراكب ، وتكتفى الشرطة بختم الجواز ، والجمركشى بتنــاول الاقرار من مندوب شركة عربات النوم .

لم أعرف اجتياز الحدود بالسيـارات الا فى أواخر الحرب العالمية الثانية بعد تحرير لبنان من ربقة حكومة فيشى ، فعبرت خط الحدود من لبنان الى فلســطين الانتداب . ونسيت الآن كيف عوملنا ، والغالب انا حملنا

الحقائب حتى صالة التفتيش ، وعتلناها عائدين بها الى التاكسى العام .

ولكنى لم أنس فى تلك الرحلة كيف عوملت بصالة التفتيش عند وصولى بالطائرة الى مطار بيروت ، وكيف احتجز موظف الجمرك ، أو شرطتهـا ، أوراقا بخط زوجتى تقدم بها مختاراتها المعدة للطبـع ، من دائرة معارف ديدرو ، فما أن قرأ الزلمة فى الاوراق اسماء روسو ، وفولتير ، ودالامبير ، حتى شخر ونفر ، وتوليت عنه سب الشمس والقمر ، ولم يكلفنى الزعيق والغضب سوى ضياع أوتوبيس شركة الطيران ، واضطرارى الى نزول بيروت فى تاكسى خاص ، واحتفاظ زلمة الجمـرك بمقدمة أدبية تأليف الحرم المصون ، وقد استرجعنا أوراقها من الفرنسى القائم اذ ذاك على الرقابة فى لبنان الانتداب ، اعادها الينا بمنزله العامر فى بيت مرى على فنجان شاى وبيتى فور .

الجديد فى حكايات العبور حدث أثناء رحلتى الاخيرة بالسيارة ، فقد اجتزت التخوم ست مرات (فرنسا ـ اسبانيا ـ المغرب ـ الجزائر ـ تونس ـ ليبيا ـ مصر) والمرة تحسب مرتين اذ تمر بشرطة جمارك البلد الذى تغادر وبأندادهم فى البلد الذى تدخل .

ولقد ذكرت فى أول فصول الرحلة طيب المعاملة فى كل هذه الجمارك دون استثناء ، حتى فى جمرك ليبيا حين ظهر أن تأشيرة الدخول التى حصلت عليهـا من قنصلية ليبيا بباريس « طايحة » ، فسألت الجندى الحارس عن معنى « طايحة » فى هذا الصدد ، لاننى لم أر رأس التأشيرة فى مكان وجثمانها فى مكان آخر . . قال : «طايحة » ما بيمكن الدخول ، ضحكت وقلت له ان من حقى على الاقل ان أجتاز البلاد فى حدود ٧٢

ساعة ، ورجوته التوجه الى ضـــــابطه ، وعلى الله التساهيل ، وأتحفت بتأشيرة جديدة بدل « الطايحة » (ولم يمض عليها أكثر من شهر !) وطوابع من الفئات العالية !

ومع الرقة وحسن المعاملة ، فان عبور الحدود فى افريقيا يستغرق وقتا غير قصير ، مرده الحب المتبادل بين البيروقراطية ,وبين الاستمارات والاختام والطوابع

انما أعنى فى هذا الفصل بشعور الرحالة عندما ينتهى من زيارة بلد ويتجه الى البلد المتاخم ، والعادة أن يقضى المسافر ليلته فى اقرب مدينـــة الى الحدود ، وكانت مدينة الجزيرة « الخيثراس » فى الطـرف الجنـوبى لاسبانيا و « وجدة » بالمغرب و «عنابة» (بون) بالجزائر ، و«قابس» بتونس و«طبرق» بليبيا ، وأحمل من هذه المدن جميعا أطيب الذكريات ، مع شعور غامض مبعثه فراق الماضى ، وتوقع المستقبل . نهاية حقبـــة ، وبدء حقبة ، غروب شمس وترقب شمس جديدة ، وتحول من نقد الى نقد ، ومن رنين لغة أو لهجة الى لغة او لهجة أخرى .

أجمـل مدن التوديع كانت « الجزيرة الخضراء » بموضعها على بحر الزقاق وفنـدقها الفخم بحديقته الغناء المطلة على البحر ، أشبه بحدائق القصور الكبيرة والغالب ان الفندق قصر معدل . كنت حزينـــا لوداع الاندلس ، وكان آخر عهدى بها اشبيلية « الخيرالدا » وحى « سانتا كروث » و « برج الذهب » حـارس « الوادى الـكبير » .

« قال الرازى : « مدينة الجزيرة الخضراء من ارشق المدن واطيبها ، وارفقها باهلهـــا ، واجمعها لخير البر والبحر ... ومرساها احسن المراسى للجواز وارضها

ارض زرع وضرع ونتاج ..

« قال ابن سعيد المغربي : لما رجعت اشبيلية الى ابن هود ولى على الجزيرة الخضراء والذى ، فقمنا بها مدة فى عيش يجب ذكره والحنين اليه ، وفيها أقول :

رعى الله أياما اذا سر غيرها
فان سرورى بعـدها متكلف

« وعندما يخرج الانسان من بابها ، يجد المياه الجارية والبساتين النضرة ونهرها يعرف بوادى العسل سمى بذلك لحلاوته » . (المغـرب فى حلى المغرب)

ذهبت فى الصباح الى ميناء الجزيرة ودخلت أقود السيارة الى موضعها من المعدية الكبيرة ، ثم ارتقيت الى سطح السفينة أتأمل صخرة «جبرولتار» وأتفحصها بالمنظار المقرب ، ولم يكن لى هم أثناء ساعة العبور (٣٠ كيلومترا) من الجزيرة فى أوربا الى سبتة فى افريقيا سوى التطلع الى بوغاز جبل طارق ، وصخرة طارق ، والتفت الى طرف أوربا ثم الى طرف افريقيا دواليك ، بوغاز أراه لاول مرة على تكرار ذكره فى محاضراتى على طلبة الدراسات العليا لعلوم البحار بجامعة الاسكندرية ، وما عرفته من تياراته السطحية والعميقة : واتصالاته البيولوجية الهيدروجرافية بين البحر المتوسط والمحيط الاطلسى .

عندما دخلت المعدية ميناء سبتة الافريقى ، غاب عنى انها مدينة تابعة لاسبانيا ، لاسيما وان جواز السفر وتفتيش الجمرك قد اجريا فى ميناء الجزيرة ، فمررت بجمرك سبتة على ظن انى ادخل بلاد المغرب واذ بنا نغادره ركوبا ، دون ختم الباسبور .. عجيبة ! وقطعت بالسيارة غلوة على الكورنيش أتساءل : وماذا أصنع عند خروجى من المغرب الاقصى ، فلا يجدون على الجواز

تأشيرة دخول ؟ وفكرت بأن أعود أدراجي حين ظهرت شرطة المغـــرب على مفرق طريقين ، ووجهت ســـيارتنا الى الطريق الداخلى ، المنفصل عن طريق الـكورنيش، فما هي برهة حتى وجدتنا فى الدائرة الجمركية للمملكة المغربية الشريفة .

.. بدر خطاي ان طنجة كانت مقيمة على وضـــعها الدولى عند زيارتى الاولى للمغرب (١٩٥٨) ثم علمت بعد ذلك انها ردت للمغرب وهـذا سر رحالتها العظيم محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ، المعروف بابن بطوطة (طنجة ١٣٠٤ — فاس ١٣٧٧ م) وظننت انها آخر ما للمغرب من أرض يحتلها الآخرون .

أما حزنى الاعمق فقد كان يوم خروجي من مكناسة ، المدينة الساحرة فى اتجاه الحدود بين المغرب والجزائر ، على طريق طويل يعبر فتحة « تازه » وهى الممر الهام جدا بين جبال الاطلس وجبـال الريف ، وكانت باب المزو من الشرق . وصلت الى مدينة « وحدة » الهادئة الناعسة ، فسيحة الطرقات فى شطرها الحديث ضيقة المسالك مزدحمة فى شطرها القديم : « المدينة » أشبه بحى سوق الزلط والميدان بباب الشعرية .

وفى الصباح الباكر اجتزت الحدود راسا الى تلمسـان حيث تناولنا الغداء بعد جولة سريعة بالمدينة التاريخية مساجدها وقلعتها وقد شـاركت تلمسـان فى تاريخى المغرب والجزائر، كما سأبينه فى حديثنا عن بلاد الجزائر واستانفنا السير الى وهران فوصلنـا فى المساء ، ولم ترق لنا الاقامة فيها ، فهى مدينة حديثة وميناء كبير، ومركز تجارى ، لا اثر فيها سوى كنيسة اسبانية قائمة على مرتفع شاهدتها من نافذة الفندق .

والثانى شعور الفراق والانتزاع فى نهاية تجوالى

بالجزائر عندما وصلت الى عنابة لاقضي فيهـا الليـلة السابقة على المجاز الى البـلاد التونسية . لم أقم فى عنابة ذاتها ، وانما ارتقيت الى ضاحية لها تطـل على البحر من ربوة عالية (٩٠٠ م) أنشـأ فيهـا معمارى فرنسى فندقا على نمط ما يعرف فى بلاد القبائل وجبال الاوراس (بالقصـور) وهى بيوت البربر تتجمع على سفوح الجبال كأنها القلاع . اسم المعمارى بويون ، كان من أشهر مهندسى باريس ثم قضى فى السجن سـنوات بتهمة التبديد أو شىء من هذا ، نتيجة حيـاة البـذخ والعظمة التى كان يعيشها فى عاصمة فرنسا .

وعندما هبطت من الضاحية الى عنابة فى صباح اليوم التالى ، يممت شطر « سوق الاحراز » (وللاسم عندى رنين المواقع بين جيوش الحلفـاء والنـازية فى الحرب العالمية الثانية) ، ومنها الى « غار الدماء » (جارديماو) البلدة التونسية على الحدود ، ثم اندفعت تاركا ورائى الوعر والجبال ومسالـكها الحلزونية الى السهل الممتد من غار الدماء الى « جنـدوبة » و « بجا » و « مجاز الباب » (ذكرى المعارك المشار اليها) فمدينة تونس ، ولم أدخلها بل سقت توا الى ضـواحيها على شـاطىء بحرنا .. ابحث عبثا عن فندقى القديم الى جانب معهد سلامبو الاقيانوغرافى ، وضحكت من نفسى وأنا أشبهنى بأهل الـكهف ، أتوقع بعد أربعين سنة أن أرى الناس هم الناس والبيوت هى البيوت ، واذا بضاحيتى سلامبو وقرطاج وغيرهما قد تحولت الى مصايف من أجمـل ما ترى العين فخامة بناء ونظافة طرق ، ومطاعم وفنادق وكازينوهات ، فنزلت بفندق من أفخم فنادق البـلاد التونسـية ، يحمل اسم أبى هانبيـــال ، ومنه بدأت استيحاء ذكرياتى القديمة فى قرية سيدى بو سعيد ،

تحفة في سلامة الذوق والبساطة ، واذا لم تفقد سلامة الذوق في مبانيها على النمط الاندلسي المغربي ، فقد تحولت الى فيللات أنيقة ، لم اعرف منها في شبابي سوى فيللا العلامة الموسيقى الفرنسي البارون ايرلانجيه ، ناشر ترجمات كتب التراث العربي في الموسيقى وكان البارون واحدا من منظمي مؤتمر الموسيقى العربية عام ١٩٣٢ ، زاره حينذاك امين عام المؤتمر صديقي الاستاذ الدكتور محمود أحمد الحفني ، وتداول معه في الاعداد للمؤتمر الشهير .

ثم حلت ليلة الوداع للقطر التونسي في فندق على البحر بمدينة قابس ، صورة من التنظيم السياحي السديد الذي قامت به الجمهورية الشقيقة بعد تحقيق استقلالها بزعامة المجاهد الكبير الحبيب بورقيبة .

وفي الصباح اجتزت طريقا معبدا وسط مناطق عفرة جفرة الى « مدنين » ومنها الى « بن قردان » فنقطة الحدود .

دخلت ليبيا متجها الى طرابلس وقضيت ليلتين قبل ان أبدأ الرحلة الطويلة جدا فيما بين طرابلس وبنغازى (١٢٠٠ كيلومتر) ، وقد سعيت الى حل لتقسيم الطريق الى مرحلتين ، وكان مواطن ليبي قابلته في صفاقس قد دلني على محلة في نحو منتصف الطريق تسمى سيرتا ، قضينا الليلة بها في نوع من النزل البدائي تعشينا فيه بسمكة صادها لنا صاحب النزل ، اطعمنا منها لحما وشوربة .

وواصلنا السير في الصباح الباكر الى بنغازى ، وكنا قد مررنا في النصف الاول من الطريق الطويل بزليطن (لبتس ماجنا الرومانية) ومسراطة والبويرات ، وبعد سرتا مررنا براس سندرة ، ومرسى العويجة (**ذكرى**

الحرب) ومرسى بريجا والعجيلة واجدابية (شرحه) ، وتتركز فى خليج سدرة موانى بترول الجمهورية الشقيقة

لم تترك طرابلس فى نفسى أثرا ، فهى خليط من المدينة العصرية والمدينة الليبية ، وليس فيها سوى موقعها الجميل على البحر وروضة لا بأس بها ، أهم منها امتداد الكورنيش بطول المدينة .

وبقيت فى بنغازى اكثر من ليلة لاتمكن من زيارة « طلميثه » ، وبعدها اتجهت الى طبرق وعرجت فى الطريق على موقع مدينة « قيرينة » القديمة ، وقد اخطأت الطريق اليها مرتين من جراء غلطة طفيفة فى الخريطة وجهتنى من ميسا الى حانيا ، قطعت نحو ثلاثين كيلو مترا ريحة جيئة لاكتشف فى حانيا انه حتى رجال الشرطة ، لا فكرة عندهم من وجود آثار قديمة على مقربة منها ، ثم نبهتنى مطوية سياحية محلاة بالصور عن قيرينة ومحررة بالالمانية الى فقرة تقول بأن قيرينة هى قرية « شحات » ، وهنا تكشف لى الطريق اليها متفرعا من البيضا الى الشحات ، ومنها الى قيرينة .

وهذه هى أجمل الآثار القديمة فى ليبيا ، أشرفت عليها فى نهاية الطريق من عل ، ولقيت شابا ليبيا جالسا على جانب الطريق يتأمل المدينة اليونانية ، لم أتوقع ان يعرف الفتى عنها شيئا - كما حدث مع شرطة حانيا - واذ به شاعر يتغنى بسحر الموقع ، وما تبقى من آثار به تشهد للمدينة بصدق ماتقوله المطوية السياحية « قيرينة سر من أسرار العالم القديم ، بل هبة من الطبيعة ، لوحة لفنان موهوب ، أسطورة لشاعر مبدع ، هى مدينة « الخرائد الثلاث » ربات الجمال والتناسق والهناء ، من اجمل مدن الاغريق القدماء

لا تتفوق عليها سوى اثينا ، وصفها الشاعر بندار بقصيدة يقول فيها : « المدينة المقامة فوق تاج من ذهب » .

وليس فى كلام الاغلام السياحى مفالاة ، فالمدينة والمدرسة الفلسفية المعروفة باسمها : « القيرينيات » ، تشغل ثلاثة أعمدة ونصفا من المجلد السادس للموسوعة البريطانية ، وتحدث عنها هيرودوت فى كتابه الرابع حديثا ممتعا ، تقع على سفح الجبل الاخضر ، أنشأها اغارقة هاجروا من سانتورين بسبب مجاعة ، واقلعوا جنوبا حوالى عام ٦٣٠ ق . م حتى بلغوا الموقع ، حكمتها أسرة ملكية مدى ثمانية أجيال ، كانت فيها مركزا اقتصاديا نافقا ، وانشأت تلك الاسرة فى القرن السادس ق . م ، ميناء « ابوللونيا » (مرسى سوسة حالا) ، ثم « برقة » (المرج حالا) واخيرا مدينة « الاسبريدة » (بنغازى فيما بعد) ..

دخلت قيرينة فى حكم البطالسة عام ٣٢٢ ق . م ، وقد انشأوا ميناء لمدينة برقة سمى « بطليموسة » (طلميتة حالا) احتفالا بعقد قران بطليموس الثالث على برنيقة اميرة برقة ، وغدت قيرينة واحدة من المدن الخمس (بنتابوليس) : ابوللونيا ، بطليموسة ، توشيرة ، وبرنيقة ، وهى الخمس مدن الغربية التى ترد فى القاب قداسة بابا الكرازة المرقسية : بطريرك الاقباط .

وقد وضع بطليموس فيلادلف دستورا لقيرينة ، يحتفظ متحف البلدة بنسخة اصيلة منه ، وكانت قيرينة فى تلك العصور مركز عرفان وثقافة من مراكز العالم القديم ، اشتهرت بمدرستها الطبية ، ونبغ من ابنائها : ابراطوسطين العلامة الجغرافى الكبير بمدرسة

الإسكندرية ، والفلاسفة كارتيادس ، وأريستيب منشىء مدرسة القيرينيات فى الفلسفة (الهيدونية) ، والشاعر كالليماخوس ، وقد عاش فى الاسكندرية وعينه بطليموس فيلادلف مديرا لمكتبة الاسكندرية ، دخلت فى حكم الرومان سنة ٩٦ ق.م ، وعاشت فى رخاء نسبى طوال القرنين : الاول ، والثانى للامبراطورية الرومانية ، ثم بدات فى التدهور من جراء زلزال ، وبدأ اهلها فى الهجرة وانتهت حياتها بالفتح العربى عام ٦٤٢ م .

وفى زيارتى لطلميثة ، رأيت أكثر مناطق الآثار اتساعا فى ليبيا ، كانت ميناء لمدينة برقة (المرج حالا) منذ عام ٢٤٧ ق . م ، وكان لها أسطول تجارى وحربى ، وعلى خلاف قيرينة ، بقيت شهرة مينائها التجارى بعد الفتح العربى ، وكانت متصلة بالاسكندرية بخط ملاحى تبادل عسلها والزبد والجلود والغلال بالغزل والنسيج من الاسكندرية .

ثم كانت مدينة الوداع فى ليبيا هى طبرق ، قضيت الليل فى فندق خارج أسوار المدينة الحصينة (ذكرى تسليم حاميتها الاسترالية النيوزيلندية للألمان فى الحرب العالمية الثانية !)

هذه مدينة وداع الرحلة الطويلة التى بدات من باريس فى ١٧ مايو وانتهت فى الاسكندرية مع ختام شهر يونية ١٩٧١ ، ولكنها لم تكن ليلة شعور بالفراق والانتزاع ، بل ليلة الفرحة باللقاء القريب بارض الوطن الحبيب ، بعد غياب ثلاثة اشهر : كيف قدرت يارب فى شبابى أن تمتد غيبتى عن هذا الوطن الى خمس سنوات

وهنا افضل تأجيل حديثى عن العودة الى خاتمة هذه الفصول ولنستأنف الرحلة وقد انتهينا منها عند المغرب الاقصى .

وحان الجواز الى الجزائر ..

بين الماضي والحاضر في بلاد الجزائر

وجدتها « اوريكا » ، كلمة السر في مأساة الجزائر ، والكلام على هذه البلاد العزيزة لايمكن أن يغفل ضحايا الحرية من أهلها، غلمانا وشبابا ، نساء ورجالا ، كهولا وشيوخا ، وقد تنسيك العاصمة بازدحامها ونشاطها وحركة مينائها الكبير يطل عليه الكورنيش بعض ذلك الهم ، فالعواصم بحر متلاطم الآذى ، والسائح فيه قنينة مختومة على هواء ، يشيلها الموج ويحطها .

أما في جبال الاوراس والقبائل ، في السهل والحزن، في بجايا أو سطيف أو تيزي أوزو ، فان غمامة من الحزن الدفين تغلف نفسي بغلالتها الخفيفة ، اذ أذكر بعض الاحداث الرهيبة من غدر الانسان بالانسان ، وارتفاع الرحمة حتى عن أرق القلوب ، عندما انفجر غضب المغلوب على الغالب ، وصاحب الارض على الغاصب ، فكانت ثورة الالفين وسبعمائة يوم .

حزن ماض ، مثل تعريف « الفعل » اذا صدقت ذاكرتي (حدث والزمن جزء منه) ، والفعل الماضي يجمع بين أمرين ، حدث وزمن فات كما يقول النحويون، وفواته لا يعني نسيانه .

« اوريكا » ، وجدتها : عبارة منقوشة على الصخر (لابيدير) ، حاسمة كالسيف ، في كتاب سنياحي صغير

اصدرته عام ١٩٣٠ سكة حديد باريس ـ ليون ـ مرسيليا ، صفحاته خمسون ، أهدانيه مكتب كوك بباريس قبل سفرى الاول الى تونس فى ذلك العام ، ومنها الى الجزائر ، فالعودة الى باريس . .

عنوان الكتيب : « الجزائر ـ مراكش ـ تونس» ، يحتوى على مجمل معلومات أساسية للزائر ، ومقدمة لمن يطلب التعمق ، والعبارة التى وجدتها جاءت تحت عنوان : « الحكومة الحالية فى الجزائر » ، وهى :

« الجزائر أرض فرنسية ! ! »

أى والله! هذه والفتاة الفرنسية التى قابلتها بباريس ووصفت نفسها بأنها جزائرية فحسبتها مسلمة من أهل تلك البلاد ، واذ بها تنكر ان هؤلاء جزائريون . . اما ل يبقوا ايه يا آنستى المأنوسة ، النوسة ، كوانوسة ؟ . .

قالت بلسان فصيح : سوسون ديزاراب : (انهم عرب) .

«الجزائر أرض فرنسية» ، وجواب الآنسة الفرنسية الجزائرية ، وما الى ذلك ، فاتحة شهية على القرف الذى مرانى فى أول زيارة لمدينة الجزائر ، فلم أقو على البقاء فيها سوى يومين ، أو بعض يومين .

والكتاب الصغير لايتركنا للعجب ولا للصيام فى رجب ، قبل أن يثبت زعمه ، فيعقب بعد شولة بأنها ضمت (أقرأ مضغت وابتلعت) عام ١٨٤٨ .

فلنتابع المنطق اللاتينى : اذا كانت الجزائر أرضا فرنسية ، فلماذا لا يصبح المسلم ، من العرب والبربر ، جزائريا مثل الآنسة المولودة بالجزائر من اب وأم فرنسيين ؟

يجيبك الدليل البليغ عن هذا :انما التمييز ـ او « الخط الفاصل » بين الاثنين ـ هو فى الاحوال

الشخصية ، فالفتاة الجزائرية مواطنة فرنسية ـ حتى لو كانت ايطالية أو اسبانية أو مالطية أو يهودية ، بحكم ان كل هؤلاء « قبلوا بأن يجرى على اشخاصهم وأسرهم وممتلكاتهم القانون المدنى الفرنسى . . . فالجزائر ليست فى قليل أو كثير مستعمرة على طريقة الدومنيون الانجليزى ، انما هى تؤلف ثلاث مديريات فرنسية ، تحكم أساسا بواسطة وزراء فرنسا ، وتشرع قوانينها فى البرلمان الفرنسى ، وهى تنتخب ، أو فى الأقل : ينتخب المواطنون الفرنسيون بالجزائر ممثلين لهم فى مجلس النواب والشيوخ بباريس ، وتحميها وحدات من الجيش والبحرية الفرنسية ، الجزائر امتداد لفرنسا » .

ويظهر ان المسألة لم تمض بهذا اليسر فى «الحلقوم» فقد تعدل هذا النظام بشلوط مفيد ، عندما تعدل نظام حكم الجزائر سنة ١٨٩٨ وما بعدها الى لامركزية ادارية بانشاء وظيفة « حاكم عام » للجزائر يقوم بأعباء الادارة نيابة عن الوزارة الفرنسية .

هذا ما جعل من حرب التحرير التى بدأت فى ليلة ٣١ أكتوبر ـ أول نوفمبر ١٩٥٤ ، مأساة شعب بأكمله ، لم يقف ضد نصف مليون جندى فحسب ، بل ضد نحو مليون من الاسياد المستعمرين أيا كان أصلهم ومنبتهم ، وقد وصموا انفسهم بنعت قبيح : فهم ذوو « الاقدام السوداء » ، والاحق أن يكون السواد صفة لقلوبهم قبل أقدامهم .

فحين بدأ الفرنسى العظيم الجنرال ديجول مشروعه لتحرير الجزائر بوسيلة ديموقراطية (الاستفتاء) ، ثارت «القلوب السوداء» ، وتألب عليه القواد الفرنسيون فى الجزائر ، وناصرتهم حركة محلية امتدت الى فرنسا

ذاتها باسم « تنظيم الجيش السرى (أوه ـ آه ـ اس) تهاجم بالديناميت حتى بيوت وزراء ديجول واعوانه ، وقام منهم ضابط مهندس على راس مؤامرة لاغتيال الجنرال ، كادت تنجح حينما أطلق المتآمرون على سيارته القنابل والرصاص ، وهو عائد الى جانب زوجته من المطار الى قصر الاليزيه ، وأعدم رأس المؤامرة رميا بالرصاص .

وان النفس لتتقزز من ذكر الجرائم الرهيبة التى اقترفها الجيش المحتل و « الاقدام السوداء » مدى نيف وسبع سنين ، واليك ما سجله الكاتب الجزائرى مولود فرعون فى آخر « يوميات معركة الجزائر » ترجمة الاخ عبد العاطى جلال .

« ١٤ مارس ١٩٦٢ : الذعر يغشى الجزائر ، والناس يسيرون على كل حال ، من يسعى فى طلب العيش ، أو يؤدى على الاقل مطالبه ، يخرجون دون أن يعرفوا ما اذا كانوا يرجعون أو يسقطون صرعى على قارعة الطريق ، كلنا هكذا : الشجعان والجبناء ، لدرجة أن يسأل الانسان نفسه عما اذا كانت الخصلتان : الشجاعة والجبن ، حقيقة موجودة ، أو هما وهم بلا حقيقة حقة ، كلا ثم كلا ، لم يعد المرء يميز ، وقد أصبحنا بلا مشاعر ولا ادراك ، بفعل حياة الخوف التى نحياها »

وفى اليوم التالى لتاريخ هذه المذكرة ، فى ١٥ مارس ، وفى حى البيار فوق مرتفعات مدينة الجزائر ، اطلق أفراد المنظمة السرية اثنتى عشرة رصاصة على مولود فرعون ، أردته قتيلا .

***

سألنا شيخا جليلا فى شارع ديدوش مراد عن حانوت يبيع الخرائط ، فسار معنا غلوة يحدثنا بلغة فرنسية

انيقة عن ذكرياته فى فرقة الاصباحية مع الجيش الفرنسى فى سنوات الحرب الـكبرى بالميدان الغربى .

قلت لرفيقة السفر : مثل هذا الرجل قبل التحرير، كان يزهو بأوسمة الجمهورية الفرنسية على صدره ، فلم تحم أنداده ، ولا أولادهم وأسرهم أوسـمة ، ولا مؤازرتهم لفرنسا فى محنتها الـكبرى تنافح عن ارضها ضد جحفل غليوم الثانى ، ألم يرد الشاعر رابندرانات طاجور أوسمته ولقب سـير الى بريطانيا بعـد مذبحة امرتسار ؟

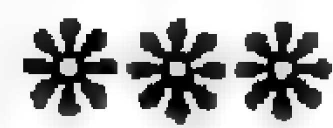
***

معرض لمنتجات فنية صنعها الصبية ، وهم واضحو المواهب ، مثل الاطفـال والصبية فى كل مكان . لفت نظرى فقر الخط العربى فى لوحات العرض ، وضعف كبير فى قواعد النحو ، وبيت من الشعر — فريد معرضه — لا أذكره الآن ، ربما كان « وانما الامم الاخلاق .. » أو شيئا من هذا القبيل ، يعوزه المجبراتى لكسر بسيط فيه .

سألت الشاب المشرف ان كان يلاحظ امرا فى ذلك البيت ، أجابنى : « هذا جاء الينا من الادارة الثقافية» صححت له البيت ، ورجوته أن ينفـذ الترميم .. ولعله ينتظر وصول « المقايسة » من الوزارة « لنهو » اللازم الى يومنا هذا .

تألمت ، لعلمى بما أمام هذه البلاد من جهد ومكابدة قبل أن يستعيد أهلها التحكم فى لغتهم الشريفة ، دون أن يفقدوا اجادتهم الملحوظة للغة الفرنسيـة ، مثلمـا خسرت أجيال من الشباب عندنا ما كسبته اجيالنا من حرص البخيل على لغتنا ، مع اتقان لغة أوربية واحدة على الاقل الى جانبها .

ولست أشك فى انهم بالغون ما يطمحون اليه من تعريب حياتهم الثقافية .. فنحن لا ننسى ان كرامة من كرامات القرآن هى التى حفظت شعب الجزائر من الانحلال توطئة للزوال ، لان رفضهم القانون المدنى الفرنسي ، ذلك الرفض الذى حال بينهم وبين «شرف» المواطنة الفرنسية ، ونزل بهم الى درك الاستعباد ، هو الذى حفظ عليهم قوميتهم .



قضيت الليل بمدينة « مليانة » بمنطقة جبل زكور، فى طريقى من وهران الى الجزائر . يجب أن تقوم لهذا المكان قداسة فى التاريخ القومي للبلاد. هنا آخر معقل للحرية ، وقف به الامير عبد القادر الجزائرى آخر وقفة لمقاومة الفرنسيين الغزاة . لم اقف عمدا بمليانه ، بل ولم أكن أعرف مكانتها من تاريخ القضاء على حرية الجزائر ، انما الطريق الذى اخترته لم يكن المسلك المطروق ، بل كان الطريق المحاذى لشاطىء البحر جبالا بعد جبال ، وتلالا تلو تلال ، يفرض سلوك هذا الطريق اجتياز واحدها بعد الآخر صعدا حلزونيا نذهب فيه الى ارتفاع مئات الامتار ، ثم ما نلبث حتى ننحدر حلزونيا الى مقربة من سطح البحر ، لنكابد تسلقا جديدا فهبوطا ، قد تسير غلوة قصيرة فوق هضبة ، لتعود الى اللف والدوران صعودا ونزولا حتى تتعب قدماك فوق البدالات ، ويداك على عجلة القيادة تديرها يمنة ويسرة ، مع الحرص الشديد فى المنحنيات الحادة — وما أكثرها فى الجبال ويشبهونها بدبوس الشعر — وأكثر معبدى طرق الجبال لا حيلة لهم فى توسيع هذه المسالك الى أكثر مما يمكن — « يدوب » — سيارتين من المرور متقابلتين فى اتجاهين .

ما أقل ما التقينا به من سيارات خاصة فى هذا الطريق ، كلها ، فيما عدا النادر ، كاميونات صغيرة تحمل تجارة أو حجارة ، عبر مجرى مياه ضحله أو جافة ، تعبرها قناطر ضيقة لا تتسع لغير سيارة واحدة ، وواحدة من هذه القناطر كانت مجرد الواح خشبية متراصة.. دون حواجز.. وماء المجرى ينساب من تحتها ، ويعبر فوق منتصفها فيما يشبه حركة الماء فوق السلسبيل ، تصور أن تعبر فوق قنطرة دون حواجز ، تتسع لسيارة واحدة ، وعليك أن تخوض بها ماء السلسبيل .

واخطر من ذلك أن ترقى الى مرتفع شاهق : لتسوق على شفا جرف هار .. كلا ، ليست هذه صيغة شعرية ، فأمامك لوحات مكتوبة تحذرك من السير على حافة الطريق ، فتتعرض لخطر انهياره والتردى فى الهوة السحيقة ، لتستقر غالبا .. فوق البلاج .

وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات ، لم تكن المخاطرة ثمنا مرتفعا لروعة المناظر وسط الارض الخضراء الى جانب بحرنا الابيض اسما ، واللازوردى أو الفيروزى ، ترصعه الشمس بحبب الماس .

كل ما كنت أخشاه من المغامرة اللذيذة ، أن لايضيق بنا النهار ذرعا فيتركنا للغسق ودجنة الليل فى تلك المعابر الوعرة المخيفة .

تناولنا الغداء عند بلدة تينس فى فندق فخم يطل على البحر ، مزدحم بأغلبية من السياح الالمان .. هؤلاء الشماليون يعشقون الجنوب عشقا ، ويذوبون حبا .. فى رمال البيداء .

لم يكن ممكنا أن نبلغ الجزائر قبل الليل ، حتى لو حرمنا أنفسنا من الغداء ، لا مناص اذن من الالتجاء

الى أول قرية أو نجع يأوينا ، وهدانا السبيل بعد لأى الى مليانة ، دخلناها بليل ، حيث لقينا اللقمة البسيطة والمنامة والدكان ـ جراج .

هكذا رتب القدر أن اقضى ليلتى فى مليـانة ، آخر معقل من معاقل الجهاد فى سبيل الحرية ، وقف فيه البطل الخالد ، الامير عبد القادر الجزائرى .

***

أقرب مكان الى قلبى فى عاصـمة الجزائر ـ على ما فيها من جمال وأناقة وترف ونعيم ـ هو « قصبتها » الفقيرة ، ضيقة المسالك الطالعة النازلة ، وسط بيوت يشد بعضها بعضا ، وتكاد تتسـاند عبر الطريق من أعلاه .. كانت « القصبـة » حصيـلة رحلتى الاولى (المبتورة) ، عدت اليها فى رحلتى الثانية وقد حلت فى ربوعها الحرية ، والحرية أغلى وأنظف وأجمـل وأكمل ما يتحلى به الانسان على الفقر وشظف العيش وضيق المثوى .

وزرتها فى رحلتى الثـالثة وهى التى تفرغت فيهـا لزيارة سياحية ، اخترت السكنى فى مواجهة أحب بحار العالم لدى رجل كانت مهنته دراسة علمية للأقيانوس (الاقيانوغرافيا) . لم أر فى مدينة من أرشـق مدن العالم موقعا ، ما يسترعى النظر كأثر ذى قيمة كبيرة ، وكان كل أثر فى هـذا البلد يفرض عليك العودة الى مأساة الاستعمار الطويل ، فكان مسجد من المساجد الذى أطلت زيارته قد تحول بعد الغزو الى كنيسة ، وأعاده أبطال التحرير الى ماضى انواره ، ما أغرب أن يصنع فرنسيو القرن التاسع عشر ـ أبناء ثلاث ثورات! ما صنع الاسبان المتعصبون بأماكن العبـادة فى حرب الاسترداد قبل ختام القرن الخامس عشر ، وما بعده

.. وما صنع محمد الفاتح بكنيسة أياصوفيا عقب استيلائه على القسطنطينية ! لم يكن المستعمر فقيرا ، ولا كان انصرافه عن البناء تراخيا ، وانما كان التعصب واذلال انسانية أهل البلاد هو الدافع الى العمل الخسيس .

والادهى أن تأتى حكومة الجمهورية الثالثة ، العلمانية ، فعلا بغيضا اذا فى الايالة التونسية ، وفى الربع الثانى من هذا القرن العشرين ، وليس لها فى تونس أى حق الا اذا كان بسط الحماية بالعافية والزور والجشع الاستعمارى يعطى حقا ، ولا انقل هنا كلاما سمعته ، أو تواتر اخبار ، فقد تصادف أن كنت أقيم فى تونس ، وشهدت بعينى رأسى واقع المؤتمر « الافخارستى » ، الذى نصب هناك فرضا على ذلك البلد الاسلامى ، احياء لذكرى مستعمر صليبى قديم ، لويس التاسع ، الملك القديس ، المغلوب على امره فى بيت لقمان بالمنصورة ، والمتوفى بالطاعون فى موقع قرطاجة بضواحى تونس .

***

قمت من قسنطينة لاقضى يوما فى آثار « تمجاد » المدينة الرومانية شبه الكاملة ، على بعد ١٥٠ كيلومترا ، انشئت عام ١٠٠ م ، فى حكم الامبراطور تراجان على اقدام جبال الاوراس وارتفاع ألف متر ، وفاتنى أن أواصل السفر لاقضى ليلة فى واحة بسكرة (على بعد ٤٢٥ كيلومترا من قسنطينة) فجمالها جدير بزيارة ، وآسف على هذا التقصير ، وعذرى انى ، وأنا عارف بأن عقبة بن نافع الفهرى — فاتح المغرب ومؤسس القيروان — توفى فى بسكرة لم اكن أعلم ان له بقرب الواحة مقاما ومزارا ، عرفت ذلك بعد عودتى الى مصر

وانا اطالع ما كتبه صديقنا الاستاذ جاك بيرك ، المولود فى الجزائر ، حين عاد الى ربوعها سنة ١٩٦٥ ، قال :

« هل القى الاصالة التى عهدت فى مقام سيدى عقبة ؟ وا أسفاه ، كان هناك دليل تافه يسرد بفرنسية المواخير تاريخ الفاتح العربى مضمخا بالصلصة الاستعمارية ، البناء يتداعى ، والاكلمة تدخن عفارا ، والبنديرة المهلهلة مرخية ، زميلى فى الرحلة يبدى غضبه ، وشعورنا بالزيف يمسك بخناقنا ، لقد تحول البطل العربى الى صورة كرت بوستالية ، اجتذابا وتسلية للسائحين ، صورة المفارقة لحداثة العصر .

« يا اخوانى الجزائريين ، ما اكثر ما عليكم عمله ، او بالاولى اعادته الى اصله ، او فتح الطريق امامه ليكون . . . . »

وحتى جهلى بوجود قبر لعقبة فى بسكرة لايكفينى عذرا عن تخلفى لزيارة أجمل واحات الجزائر ، وقد قرأت عنها فى شبابى (اندريه جيد) ، والتى أقام فيها ردحا الموسيقى المجرى العظيم بيلابارطوك ، بدرس موسيقى أهل الواحة ، وقد وضع فيها بحثا قيما اهدتنى الحكومة المجرية صورة فوتوغرافية لصفحاته .

***

بالجزائر ثلاث مدن يجب الا تفوت الزائر مشاهدتها ، بعد العاصمة ، أولها تلمسان ، وآخرها قسنطينة وواسطة العقد بينهما بجاية .

واقليم بأكمله يتعين على السائح ان يرتاده ولو عبورا : منطقة القبائل ، وجبال الاوراس ، فمن هنا انطلقت الشرارة الاولى عام ١٩٥٤ فى ثورة التحرير .

وقضيت لحظات فى بجاية اتناول الفداء ، واذا بصاحب النزل يستأذن فى ان يتحدث الينا ضيف من

ضيوفه ، وهو شخصية من شخصيات حركة التحرير، تبادلنا الحديث من أول وهلة وكأننا أصدقاء ، بل أقرباء . أكرمني وحرص على أن يرافقني بعض الطريق، ويدعوني الى مكانين على شاطىء البحر ، نشرف منهما على « الكورنيش الذهبي » ، لاحظت ان القوم يستقبلون مضيفي باحترام ، أعجبتني فيه اصالته وصراحته . . . وتواضعه ، يتكلم الفرنسية كأهلها .. دون التحرج من القول بأنه لم يتخرج من جامعة ، ولا حتى من ليسيه ، على حد قوله .

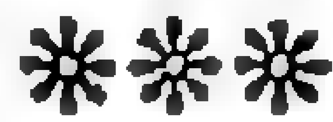
يمثل عندي الامل في المستقبل ، وقد كان يجاهد شابا في خمسينات القرن ، وهو اليوم رجل أنضجته التجربة العنيفة . . . هؤلاء هم أساتذة الجيل ، وليس ضروريا أن يحملوا درجات جامعية ليبثوا في شباب الجزائر روحا جديدا . ما أجمل أن يحقق الآباء في تعليم أبنائهم ، وابلاغهم أقصى درجات التخصص مع خلفية عميقة من الثقافة ، ما لم يتح أن يحققوه لانفسهم ، بهذا تنشأ الاجيال التي تحرك التاريخ . . .

رافقني زعيم بجاية بعض الطريق نحو سطيف ... والغروب دان ، وعلى قطع الطريق الى هذه المدينة قبل أن يجن الليل ، فهو طريق جبلي وعر ، وفي سفري من الجزائر الى قسنطينة ، كررت اقتحام الطرق الحلزونية، التي عانيت فيما بين وهران والجزائر ، علام التوبة ؟ ألم يقولوا في المثل السائر : « يموت الزمار.. الخ ؟ »

بلغت سطيف في حلكة الليل ، واتخذت الطريق الطوالي الى قسنطينة (حوالي ٢٠٠ كيلومترا) لا الوي على غير سيارة أتبعها ، مع الامل أن لا تخلو بي في الطريق لتقف في محلة أو قرية . فزت بها ، وكان سيرها منتظما (١٠٠ كيلومتر ـ ساعة) ، فيما عدا ما

يقتضيه الحذر عند ظهور ضوء سيارات فى الاتجاه المضاد ، وهذا وحده من اخطار سواقة الليل الحالك ، تابعت السيارة .. كظلها ، أو على خط نورها الاحمر، حتى بلغنا مداخل المدينة ، ثم وسطها ، واستمرت السيارة القائدة حتى دلفت الى حى سكنى متطرف ، ووقفت أمام دار خاصة ، فأسرعت الى صاحبها اعتذر له عن مطاردتى المشبوهة ، وأشكره على ما أداه لى من خدمة دون علمه ، ولولاه لما شعرت باطمئنان فى طريق الليل وأنا غريب الديار .

كان الرجل كريما ، كعهدى بالجزائريين ، فأنزل اصحابه أو أهله ، ثم سألنى عن وجهتى فأخبرته باسم الفندق ، وقادنى اليه خلال معارج المدينة ، وكأنها سكك أبو زيد .



قسنطينة عاصمة شرقى الجزائر ، موقعها الطبيعى حصين بحكم احتضان نهر (وادى) الرمل هضبة الموقع.

كانت تسمى « كيرتا » أو سيرتا فى القديم ، تأثرت بحضارة قرطاجة ، وكانت عاصمة « نوميديا » حتى تغلب الرومان على أميرها جوجورتا ، ثم خضعت لبيزنطة . أعاد الامبراطور بناءها وسميت باسمه « قسطنطينة » ، ولكن أهلها ينطقونها « قسنطينة » بسكون القاف تلصق بها السين المفتوحة .

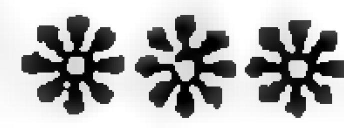
وفى العصر الاسلامى تنازعتها الامارات الاسلامية ، والخلفاء الفاطميون، فبنو زيرى ، فالموحدون ، وانتهت الى حكم الحفصيين فى افريقية (أى تونس) . وفى العصر العثمانى كان يحكمها باى ، نائبا عن داى الجزائر. حاصرها الجيش الفرنسى مرتين ، قبل أن يقتحمها أمام مقاومة عنيفة جدا يقودها أحمد باى ، وبرغم سقوطها

عام ١٨٣٧ ، فقد واصل احمد باى جهاده على راس القبائل فى جبال الاوراس ، وصمدوا حتى سنة ١٨٤٨.

وقصر احمد باى هذا من أجمل قصور المغرب ، وبالمدينة الجامع الكبير ، من عصر الحفصيين ، وجامع سيدى الكتانى ، أو مسجد صلاح باى ، وسيدى الاخضر كلاهما من العصر العثمانى .

وبالمدينة أعمال انشائية فوق أغوار وادى الرمل : كوبرى سيدى راشد ، ثم الكوبرى المعلق الهائل المسمى بسيدى م ، سيد ، طوله ١٦٨ مترا معلق على ارتفاع ١٧٥ مترا ، أنشىء عام ١٩١٢ .

ولاحظت ان خمار المرأة وازارها فى قسنطين وربوعها ـ على خلاف المناطق الاخرى ـ تتميزان باللون الاسود.



لن نفهم آثار تلمسان ، ولا يمكن القاء بعض الضوء على بلاد الجزائر الا أن نلم بتاريخ المغربين : الاوسط ، والادنى ، اتماما لما بدأناه من تاريخ المغرب الاقصى .

والآثار الاسلامية الهامة بالجزائر نجدها فى طرفى البلاد الشرقى بقسنطينة وصقعها ، والغربى بتلمسان .

وفضلت أن يجىء هنا مكان هــذا الالمام ، وأنا على وشك الانتقال الى البلاد التونسية ، والحديث عن تاريخ الجزائر لايوضحه الا اتصاله بتاريخ المغرب الاقصى من الغرب ، وبتاريخ افريقية (تونس) من الشرق ، ثم ببعض تاريخ البحرية العثمانية وكان بطلها خير الدين بارباروسا ، فهو الذى اتخذ من جونة الجزائر عرينا لاسطول المغامرين المسلمين ضد حركة التجارة المسيحية فى البحر الابيض ، وهو الذى قدم المغرب الاوسط ، والمغرب الادنى هدية لآل عثمان فى استامبول .

خلفية تاريخية لا بد منها

« ... ثم كانت ولاية مروان بن الحكم ثم ولي عبد الملك بن مروان ، فاستقام له الناس . واستعمل اخاه عبد العزيز على مصر ، فولى افريقية زهير بن قيس البلوى .. وولي بعده حسان بن النعمان الغساني فغزا ملكة البربر « الكاهنة » فهزمته . فاتى قصورا فى حيز برقة ، وعاد الى غزو « الكاهنة » فقتلها وسبى سبيا من البربر ، وبعث به الى عبد العزيز ، فكان ابو محجز الشاعر يقول : لقد حضرنا عند عبد العزيز سبيا من البربر ما رايت وجوها احسن من وجوههم . »

« فتوح البلدان للامام ابي الحسن البلاذرى »

تملكت « الكاهنة » ، من قبيلة الجراوة ، على البربر ، ووصفت بالداهية ولا يعرف لها أسم بعينه ، طارت شهرتها ما بين افريقية وموريتانيا ، هبطت جبال الاوراس لنزال عدوها حسان بن النعمان، وكانت ساعة متأخرة من النهار فلم تقبل على المعركة ، وقضت الليلة فوق سرجها . وفى الصباح وقف فرسان البربر فى نصف دائرة تتقدمهم صفوف الهجانة ، وبين اقدام الجمال رماة النبال ، وخلف الجيش احتشدت النساء ، وعتاد الحرب .

جمحت جياد حسان من رائحة الجمال ، وانهزم القائد العربى وطورد مرتدا حتى قابس ، وتحصن فى موضع يعرف بقصور حسان . ودارت رحى المعركة فوقع عدد من الاسرى بين يدى « الكاهنة » واذا بها تعيدهم الى صفوف أعدائها ، الا فتى مليحا يدعى خالد بن يزيد من بطون قيس ، راق فى عينى ملكة البربر فتغنت بملاحته وسمرته وقالت له سأرضعك لتصبح ابنا للكاهنة وأخا لأولادى ، وأجريت مراسم التبنى تبعا لتقاليد البربر (راجع تبنى أمنا الغولة فى حواديتنا) .

كانت الكاهنة تستقبل صباح معركتها الاخيرة بفال سوء ، قائلة : « كلما واجهت المشرق رف منى الطرف نذيرا ، لقد جاء العرب لامتلاك بلادنا » ، وأمرت بأبنائها وبالفتى القيسى أن يسلموا الى حسان بن النعمان .

واحتدم القتال بين الجيشين عنيفا داميا ، عقد النصر فيه للمسلمين ولم تطلب الكاهنة النجاة قائلة : انى اعرف كيف أموت ملكة ، ووقعت فى الاسر ، فقطع راسها وألقى بها فى بئر عرف ببئر الكاهنة .

تلك صورة ، أو أسطورة من أساطير البربر حول الفتوحات الاسلامية الاولى بالشمال الافريقى ، ولم يكن يعرف فى ذلك الزمان بأقسامه التى أقامتها الدول الاسلامية فيما بعد ، بل كان على حاله منذ فجر التاريخ . أقام فيه الفينيقيون بعض الثغور ، وتبعهم القرطاجيون فالرومان فالوندال فالبيزنطيون ، وأطلق اليونان على « افريقية » اسم « نوميديا » بمعنى بلاد « القوم الرحل » ، وهم جنس لم تتحقق أصوله الاتنوغرافية على وجه الدقة ، والغالب انه جنس ليبى يصفه علم الاجناس بأنه الجنس « الميدتيرانى» الجنوبي

فى مواجهة الجنس الميدتيرانى الشمالى .. وكلاهما يمثلان السكان القدامى حول حوض البحر المتوسط .

قامت فى العصور الوسطى ثلاث دول بالمغرب لكل منها حدود طبيعية :

المغرب الاقصى : من شواطىء المحيط الاطلسى حتى وادى ملويا ، وحاضرته فاس .

المغرب الاوسط : ويشتمل على ارض وهران ، وجونة الجزائر ، وعاصمته تلمسان .

المغرب الادنى : وهو « افريقية » التاريخ الاسلامى (ونوميديا العالم القديم) ويضم ارض قسنطينة وتونس وبعض ليبيا ، وعاصمته القيروان .

قام بموقع مدينة الجزائر فى العصر الرومانى بلد اسمه « اكوزيوم » وفى القرن العاشر (٩٣٥ م) ، انشأ الامير بلكين (بولجين) بن زيرى فى ذلك الموضع مدينة اطلق عليها اسم « الجزائر » نسبة الى مجموعة جزر صغيرة فى مداخل الجونة الكبيرة .

وقد دخلت هذه المدينة فى حكم بنى حماد ، فالموحدين ، فعبد الواد ، فدولة بنى زيادة التى تحكم فى تلمسان .

أما بلاد الجزائر كما تعرف اليوم فلم تحدد تخومها الا عام ١٦١٤ م .

فلنطرق الآن تاريخ المغرب الاوسط والادنى بدءا من دولة بني عبد الواد فى تلمسان (القرون ١٣ الى ١٦ م) ودولة الحفصيين فى افريقية .

بنو عبد الواد من قبيلة زناتة ، استقروا فيها بين وادى ملويا ، غربا والزاب والاوراس شرقا ، فى مطالع القرن الثالث عشر .

شارك بنو عبد الواد قبيلة المغاورة (بطن من زناته) في محاربة العرب من بنى هلال وبنى سليم ، وهى القبائل العربية المقيمة بمصر ، والتى أطلقها الفاطميون على المغرب لمحاربة فرقة الاباضية فى الزاب ، ولتخريب المغرب .

وأقام الموحدون سيطرتهم على بنى عبد الواد واستعملوهم لمقاومة بنى مرين ، الاسرة الصاعدة التى تهدد دولة الموحدين فى المغرب الاقصى ، وكوفىء بنو عبد الواد بأن اقطعوا المغرب الاوسط كما ذكرنا .

ويغموراسن بن زيان هو مؤسس الاسرة الحاكمة فى تلمسان ، كان أميا لاينطق بغير لسانه البربرى ، ولا شأن للأمية وما اليها أن يكون الرجل عبقرية حربية ، أمضى سنوات حكمه فى محاربة العرب الهلالية ، وامتد جهاده الى الإشتباك مع الدولة القوية شرقيه (بنى حفص فى افريقية) ، والموحدين وبنى مرين فى المغرب الاقصى.

هاجمه أبو زكريا الحفصى ، واضطره الى الاحتماء بالجبال ، ولكنه عاد الى عاصمته تلمسان بعد عودة أبى زكريا الى افريقية ، باتفاق على أن يدفع الجزية الى الحفصى .

كان المرينيون يركزون حروبهم على قهر الموحدين وازالة ملكهم ، فهم بحاجة الى معونة يغمراسن ، الحريص على امارته بتلمسان ، فى مواجهة بنى مرين فى فاس .

لم يدم السلام طويلا بين بنى عبد الواد وبنى مرين، وقامت الحرب بينهما سجالا على طريق تازة ، الممر الخطير مابين فاس والمغرب الاوسط، وهو الممر الفاصل بين جبال الريف شمالا ، وجبال الاطلس جنوبا .

ترك يغمراسن بن زيان امارة تلمسان قوية الجانب ،

تتمتع برخاء اقتصـــادي مرده انها ملتقى تجارة البحر الابيض المتوسط ، كما اشتهرت تلمســـان بمدارســـها واقبال أهل العلم والادب عليها ، وخاصة من الاندلس، وكان على راسهم أبو بكر محمد بن الخطيب ، الذي أقامه يغمراس على رسائله .

بيد ان هذه الدولة الصغيرة المحصورة بين الحفصيين فى افريقية والمرينيين فى المغرب الاقصى لا تنفك فى صراع للحفاظ على استقلالها ، حتى انتهت دولة عبـد الواد عام ١٥٥٤ م .

فمن هم الحفصيون ، وما اصلهم ؟

فى مطالع القرن الثالث عشر أتم الموحدون الاستيلاء على ملك المرابطـين فى المغرب كله ، ما عـدا الجنـوب التونسى حيث صمد المرابط ابن غانية الى ان تغلب عليه سلطان الموحدين الناصر بن المنصور ، فعين أبا محمد ابن ابى حفص حاكما على الاقليم .

وحينما حاقت الهزيمة بالموحدين فى الاندلس ، مما أضعف شوكتهم ، اســتقل أبنـاء حفص بأمورهم فى افريقيـــة ، ويعزو ابن خلـدون ذلك الى ان أبا زكريا الحفصى تخلص من سيطرة الموحدين عندما بلغه انهم سمحوا للمصلين باستعمال لغة البربر فى أداء فريضتهم، وغير ذلك مما اعتبره الحفصى مخالفة خطيرة ، بل مروقا

امتد حكم بنى حفص حتى اقليم بجايا بعد زوال ملك الموحدين فالجزائر ، ثم احتلوا تلمسان وفرضوا الجزية على يغموراسن (كما سبق ذكره) بل بسطوا حكمهم على سبته وطنجة ، واعترف بهم سكان بلنسية وشرقى الاندلس ، فكان أبو زكريا الحفصى أقوى حكام الشمال الافريقى ، وقد راسل الملوك والامراء فى أوربا ، وعقد ميثاقا تجاريا مع امبراطور الجرمان فريدريك الثانى .

آل هوهنشتاوفن ، بطل الحملة الصليبية السادسة ، الذى عقد معاهدة صلح مع الملك الكامل الايوبى ، سلطان مصر ، دامت نحو احد عشر عاما .

توفى أبو زكريا فى عنابة ، وتفككت دولة الحفصيين فى القرن الخامس عشر ،خرجت عنها قسنطينة وبجايا ، ولم تبق لها فى القرن السادس عشر غير تونس ، وكان العرب من قبائل القوب وبنى سليم قد استولوا على بقية البلاد ، مما اضطر معه الحفصيون الى الاستنجاد بالاتراك العثمانيين الحاكمين فى الجزائر ، وكان ذلك ايذانا بدخول تونس فى حكم آل عثمان .

وقبل أن نفصل استيلاء العثمانيين على الجزائر يجدر بنا أن نشير الى حملة الصليبى لويس التاسع على تونس ، ونزول جيشه بضاحيتها « قرطاجة » ، فقد حدثت ودولة بنى حفص فى عزها ، وعاصمتهم تونس قد احتلت مكانة القيروان فى العلوم والآداب والتجارة والصناعة .

ومن الطريف ان يرجع القارىء الى الجزء الثانى من تاريخ ابن خلدون لمراجعة هذه الحادثة التى علق عليها مؤرخ فرنسي مسيحى قائلا : كانت حملة القديس لويس تشهد بجهالة عجيبة لشئون افريقية ، فمع ان الجيش الصليبى المتحصن فى قرطاجة لم يتمكن من دخول معركة واحدة مع المسلمين فقد زعم املاء ارادته عليهم حين اشترط لعقد الصلح بينه وبين الحفصيين . . أن يتنصر خليفتهم المسلم .

وعلق عبد الرحمن بن خلدون على هذا الشرط الرائع ! بأن يد الله نزلت على رأس « الريدفرانس » لويس بن لويس ، فنفق بالطاعون فى الموضع الذى

انزل به جيشه ، وأجلى الحفصى هـذا الجيش مقابل دنانير معدودة .

لقد تغير حال المغرب الاوسط وافريقية فى خلال القرن السادس عشر : احتل الاسبان شواطىء وهران ، فى الوقت الذى كانت شمس بنى عبـد الواد تنحدر الى الغروب ، والحفصيون يعانون سكرات الموت فى افريقية

وأهم حـادث فى ذلك القرن كان ظهور الاتراك على الضفاف الجنوبية للبحر المتوسط ، واستيلاؤهم على مصر وبلاد المغرب الادنى والاوسط .

وكان للعثمانيين ـ دولة الخلافة ـ فضل لا ينكر على بلاد المغرب الاوسط ، وهو مدافعة الاسبان الطامعين فى احتلال الثغور الاسلامية .

واذا كان سقوط مصر المملوكية بين براثن العثمانيين غزوا وقهرا واذلالا ، فقد كان استـيلاؤهم على تونس والجزائر هدية لطيفة من قرصان مغامر ، تاجر باسلابه وغنائمه مبادلة مع الحكام ، ثم انتهى بضم أسطوله الى الباب العالى ، وكوفىء بأن عينه خاقان البحرين أمير امراء البحر برتبة قبطان (قبودان) باشا .

وهذا المغامر تركي، أو البانى ، ولد بجزيرة لسبوس لأب فخرانى رزق بأربعة أبناء ، عملوا كلهم على مراكب القرصنة ، وهم اليـاس ، واسحق ، وبابا عروج ، وخيرالدين .

أشدهم مغامرة كان بابا عروج ، وقع فى أسر فرسان الصليب أصحاب جزيرة رودس ، وحين أفلت من الاسر لجأ الى شاطىء افريقية ، وجعل من جزيرة « جربة » (فى مواجهـة قابس بالجنوب التونسى) مركز قيـادة لقرصانه ، وأغرى الامير الحفصى على اشراكه فى السبايا والغنائم .

لحق به أخوه خيرالدين ، وذاعت شهرة ولدى صانع الجزار ، وأشاعا الفزع على طول البحر المتوسط بعرضه من جراء المغامرات الجريئة ، وقطعهما الطريق على السفن المسيحية .

واستنجد « شيخ » الجزائر بانشقيقين ليخلصاه من ربقة الاسبان ، وعندما وصل المغامران الى الجزائر وجدا ان الاسبان يحتلون واحدة من الجزر القائمة بمدخل المرفأ الكبير ، ورأى بابا عروج ، بما طبع عليه من انتهاز الفرص والغدر ، أن يتخلص من الشيخ بقتله وأعلن نفسه ملكا على النواحى ومد سيطرته على الشاطىء حتى دخل تلمسان فحوصر فيها ، ثم هرب منها غربا الى وجدة ، حيث ادرك وقتل جزاء وفاقا على غدره .

تولى خيرالدين قيادة اسطول القرصنة ودخل الجزائر فاتحا ، وبدأ منها الشهرة التى طبقت آفاق «الفرنجة تحت اسم ذى اللحية الحمراء (بارباروسا) .

وبضم أسطوله الى اسطنبول ارتقى الى قيادة البحرية العثمانية كما سبقت الاشارة اليه ، وتقدم بأسطوله الى تونس فاحتلها ، وأنهى حكم الحفصيين (١٥٣٤ م)

وغرقلة ملاحة الدول المسيحية فى البحر المتوسط لم يقف أمامها شارلكان يهز رأسه ، فما أن استقر حكمه الامبراطورى بأوربا حتى استدار نحو الجنوب فى حملة فاشلة على الجزائر ، فاتجه بأسطوله الكبير الى قرطاجة ونجح فى انزال عشرين ألفا من عسكره فى المكان الذى احتله لويس التاسع قبل ثلاثمائة عام ، ومن قرطاجة اقتحم « حلق الوادى » لاحتلال تونس ، وتلقى معونة متوقعة من طابور خامس يتألف من الاسرى المسيحيين بداخل المدينة .

عاد خيرالدين الى اسطنبول فى الوقت الذى استرجع الحفصى عرشه تحت الحماية الاسبانية ، مع دفع الجزية للامبراطور ، وقبول جيش يحتل « حلق الوادى » وبنزرت والمهدية .

ولم يرض شعب البربر بسلطانهم المتخاذل الذى باعهم من أجل « الكرسى » وعاد العثمانيون فحرروا المهدية وبجايا وتلمسان ، واستعادوا تونس عام ١٥٥٩م بقيادة قبطان باشا أولج على .

ولا تعنينا فى كثير أو قليل تفاصيل الحكم العثمانى فى بلاد الجزائر والايالة التونسية ، ولا كيف انتهى الى « باى » فى تونس و « داى » فى الجزائر ، وجدير بنا أن ننسى حكم الفرنسيين فى الجزائر ، وحمايتهم لتونس ومراكش ، فتلك صفحات سود من كتاب القرون الماضية ، وبخاصة القرن التاسع عشر ..

تونس ..
بين رحلتى الشباب والشيخوخة

من كل أقطار رحلتى الاخيرة الى الشمال الافريقى. فزت بأكبر نصيب فى القطر التونسى ، أقمت به شهرا قبل أن أبلغ الثلاثين ، وعدت اليه وقد اجتزت السبعين

سعدت بالاقامة فى تونس مرتين ، ومصدر سعادتى واحد : الاحساس بقرب الوطن .. فى المرة الاولى طالت غربتى عن مصر الى خمس سنوات ، فكان فى سفرى من باريس الى تونس استرواح لمصر ، واستشعار بنسيمها .. وفى المرة الثانية كنت أقترب من نهاية عبورى الطويل ، وقد غادرت باريس الى القاهرة ، عن طريق اسبانيا والشمال الافريقى ، ولم يبق بينى وبين الوطن سوى ليبيا . ولاحظ انك كلما اتجهت مشرقا من المغرب الاقصى ، قربتك اللغة التى تسمع من لهجة المصريين ، لهبوط نسبة اختلاط لغة البربر بالعربية .. واذا كنت فى سائر بلاد المغرب تسلك طريقك مع المتعلمين بالعربية الفصحى ، أو بالفرنسية ، فان صعوبة — وربما استحالة — فهم الكلام الدارج فى المغرب الاقصى ، تخف شيئا فشيئا ، كلما انحدرت من أعالى الجنوب نحو الشاطىء ، أو كلما اتجهت شرقا . فاذا بلغت تونس ، سهل عليك التخاطب بلهجتك المصرية ، وما أسرع ما يتعرفون عليك قائلين : «مصراوى» .. وقد

تستطيع ، الى حد ما ، فهم التونسية الدارجة على الاقل فى الحضر. . ثم انك تحس فى تونس بجو وداعة ، اشبه بوداعة المصريين ، بل وباستعداد لطرقعة التكتة عند التونسيين ، وبقدرة على تذوق الفكاهة .. وظهر ذلك عندما ذهبت الى «شفخانة» السيارات ، استرجع العربة التى حملها البوليس بالرافعة (الونش) الى هناك ، لوقوفها فى مكان مسموح به فى وقت الازدحام ، محظور بعد ساعة معينة يجهلها السائح العابر طبعا .. تبادلت القفش مع رئيس محبس السيارات المخالفة ، وكان الابتسام بين الطرفين بديلا عن دفع الغرامة ..

كنت فى اقامتى الاولى عام ١٩٣٠ ، أعيش على مقربة من المعهد « الاقيانوغرافى » فى سلامبو ، مع فرنسيين فى الفندق وفرنسيين فى المعمل الذى اقضى به سحابه اليوم ، فاذا انتهيت من عملى مبكرا ، خرجت الى آثار قرطاجة البونيقية — وهى قليلة ، بعد أن خربها سبيون الافريقى ، ومن جاء بعد الرومان من الغزاة والفاتحين — والآثار الرومانية ، وهى كثيرة لا فى قرطاجة وحدها بل فى غير قليل من الاصقاع التونسية ، وقد أزور متحف « الآباء البيض » ، وهم أعضاء رهبنة أسسها الكردينال لافيجرى ، المبشر المشهور ، وألبس رهبانها مسوحا أبيض ، مستوحيا جلابة المغاربة ، وأنعلهم البلغة ، كنت أبادل بعضهم الحديث فى لقائى معهم بالمتحف أو وسط الآثار .

ويوم الاحد كنت أقضى النهار بطوله ، وبعض الليل ، فى تونس المدينة العتيقة ، أتناول طعامى فى مطاعمها البلدية ، وأستمع الى الفونوغراف « أبو نفير نحاس أصفر » ، وسهرت ذات ليلة فى مسرح البلدية بالمدينة الاوربية (خارج السور) فأعادتنى السهرة الى مطالع

مراهقتى ، كانت الرواية « ثارات العرب » ، وهى ترجمة وتعريب لرواية فكتور هوجو « البورجراف » بقلم نجيب حداد ، وكان التمثيل تهويشا وتلويحا بالايدى والاذرع ، وجئيرا خطابيا ، والجمهور تفوح منه روائح العنبر ، والطرابيش الحمراء المطربقة (وهى الشاشية) تتدلى منها أزرار زرقاء وسوداء تبلغ الاكتاف . وعندما رأيت فى تجوالى عددا من حمامات السوق ، تاقت نفسي الى دخول واحد منها ، ولم أك دخلت حمام السوق سوى مرة واحدة فى الطفولة ، اتماما لتقاليد الختان .

والتقيت فى الحمام بالشباب التونسى من طلاب جامع الزيتونة ، فتحدثوا الى بما يتوقعون من اضطرابات بمناسبة افتتاح « المؤتمر الافخارستى » ، فنزلت أشاهد موكب القاصد الرسولى يستقبله المقيم العام الفرنسى عند حلق الوادى ، ويركب الى يساره ، نافشا منفوخا كالديك الرومى .

ولاحظت أن الامن وكلت به فرقة من السنفاليين السود ، سيطرت على المدينة تماما ، وبلغنى ان مظاهرات سارت تهتف داخل المدينة العتيقة ، وانتهت بسلام .

واخبرنى الكتبى الذى كنت أجلس بمكتبته أمام جامع الزيتونة ، فى دعابة تونسية ، ان قطة حاولت عبور طريق الموكب ، فمنعها الحارس السنغالى . . بكنافة بندقيته (ونسيت الاصطلاح التونسى تعبيرا عن كعب البندقية) .

اقتنيت من مكتبة صاحبى دواوين أشعار تونسية ، والطبعة الاولى للجزء الاول من « الايام » لطه حسين ، وطبعة حديثة لقصة محمد حسين هيكل « زينب » ، وكتابا أعتز به ــ على الرغم من اصابته الشديدة

بقارضة الورق ـ هو « نخبة الزائر فى مآثر الامير عبد القادر ، وأخبار الجزائر » تأليف ابنه محمد عبد القادر الحسنى (مطبعة غرزوزى وجاوبش ، الاسكندرية ١٩٠٣) .

ولاحظت فى مكتبة صاحبى التونسى ان مجلاتنا المصورة (١٩٣٠) كانت رائجة ، ربما لمادتها ، وقطعا لما بها من صور لمتاع الحس والبصر ، وكان الكتبى يثير رغبة الزبائن بالاشارة الى ما بها من «صور نساء» : قال هذا لجزائرى قحف مستغلق اللغة ، حاولت أن أتفهم منه شيئا عن بلاده فتلعثم « عيضة » ، ولم يشجعنى الكتبى على المضى فى الحديث ، ورثى لحال أولئك الغلابة الذين أضاعهم الاستعمار .

سافرت بعد انتهاء عملى الى القيروان فقضيت فيها يومين بليلة ، زرت أهم مساجدها على مهل ، وطالعت بعض ما تيسر عن الفن المغربى ، ودعانى تاجر سجاد على العشاء بمنزله مع بعض أصحابه ، وسهرنا فى مقهى به تخت وغناء .. ورجل يرقص فى لبسة الغوانى ، ذكرنى بفؤاد الـ . . . رأيته فى صفرى يقدم فاصلا من رقص البطن بالسيرك الوطنى فى مولد « أم العواجز » .

وطبيعى ان أسعد بزيارتى الثانية لا لمجرد استقلال البلد الشقيق فحسب ، بل لروعة ما شاهدت من تجديد ، وما أحسست به من روح طموح : حارب الاستعمار ولم يتنكر لحضارة الغرب ، مثلما كنا بمصر أيام ثورة عام ١٩١٩ وما بعدها ، حيثما كنا نقاوم المستعمر البريطانى ، دون أن نتخذ من ذلك ذريعة لكره الحضارة الاوربية ، كنا نشعر بحاجة مزدوجة اليها : مؤازرة الدول الغربية لنا فى قضيتنا العادلة ، وضرورة استئلافنا لحضارتها ، فهى سلاحنا الامضى فى محاربة

المستعمر ، وهى درعنا لنواكب الحضارة المعاصرة فى سلام .

تونس ، والمغرب كله ، اقرب منا الى الحضارة الاوربية ، ولا أعنى القرب الجغرافى وحده ، وانما الاتصال المعنوى كذلك ، نعم ان الطائرات طوعت السفر الى أوربا وغيرها ، ولكن ما لايدرك لاول وهلة هو ان سفر خمس ساعات فى الطائرة من ناحية التكاليف يعادل سفر ثلاثة أو اربعة أيام بالبحر والقطار ، وما بين تونس وباريس ساعتان بالطائرة ، وقريب من هذا ما بين الجزائر والمغرب الاقصى والبر الاوربى ، والطريق ذو اتجاهين ، فما أيسر على طلبة العلم فى المغرب من بلوغ هدفهم فى دراسة أصول الحضارة ، وعلى السائح الاوربى ، وحتى الامريكى الذى يقضى اجازته فى أوربا ، من ان يخطف الى بلاد المغرب .

ولكى نفهم ما حدث من تطور بعيد المدى فى الاستعداد السياحى ببلاد المغرب ، نذكر ما حدث عقب الحرب الماضية . اجتمع المهتمون بتيسير السياحة واستغلال مواردها ، واتجهوا الى الشمال الافريقى كمرفق سياحى هام ، ووضعوا خططهم الاستثمارية وشيكا ، وقد لاقوا من حكومات المغرب استعدادا وقبولا ، وشاركت هذه الحكومات مشاركة فعالة فى انشاء واعداد كل ما من شانه خلق صناعة سياحية نافقة . ويجب أن نشهد لمن حملوا لواء هذا التطور من رجال المغرب بالكفاءة الممتازة ، وسرعة فى الانجاز ، وشجاعة فى مواجهة الحضارة بصدر رحب وعقل متفتح

وتونس ، بالنظر لموقعها المتوسط فوق ذلك الراس الممتد فى اتجاه أوربا ، كانت طوال تاريخها مركزا هاما

للتجارة والمبادلات الاخرى بين الشرق والغرب والشمال والجنوب .

الجديد على بتونس ، وقد التقيت فيهـا بأشـقاء اعزاء للمرة الثانية ، هو انني رأيتهم ينعمون بالحرية والسلام ، ويخطون خطى المطمئن الواثق نحو التطور الحضارى الى أقصـاه ، مسـلحين بمضاء العزيمة ، وتخفف من أثقال الماضى ، دون أن يضـعف ذلك من حفاظهم على تراثهم الاسـلامى ، وهو عظيم فى ثرائه واصالته ، وآثارهم البونيقية والرومانية . انظر مايقوله تقرير قـدم الى المؤتمر الثـالث للمدن العربيـة عام ١٩٧١ ، بعنوان « تونس ، المدينة العتيقة » :

« ان عملية التجديد العمرانى التى يجب القيام بها ، ينبغى أن تكون أولا عملية احياء التراث ، وثانيا عملية تكسب المنطقة وظيفة جديدة ، والمهم هو اعادة بنـاء حى ، يكون مثـاليا بمساحته وموقعه ونوع نشـاطه الاقتصادى والثقافى للمدينة العتيقة فى المستقبل ، وهو مثالى بمعنى أن يؤسس بكيفيـة تسـاعدنا على ايجاد الحلول المعاصرة التى تتصل بموارد ماضية ، وبتداخل محكم للمساكن والتجهيزات العمومية والخصوصية فى الميدان الاقتصادى والمجال الثقافى » .

وفى موضـع آخر من التقرير : « ونحن نعتبر ان التغيير أو الاتلاف بجهالة ، جريمة ضد التراث الثقافى القومى ، ونطالب السلطات النظر فى اتخاذ الاجراءات اللازمة ، كما نعتبر ان الدفاع عن التراث الثقافى أمر بالغ الاهمية » .

وبعده : « ويعمل الآن مختلف الاختصاصيين بارتباط وثيق مع أعضاء صيانة المدينة ، وتعاون خاص بين هذه الجمعية والمعهد القومى للآثار والفنون .

« هذا ، ومعالجة مشروع تونس ـ قرطاج بالتعاون مع اليونسكو ، دليل على العناية العالمية التى يختص بها تراث المعالم التاريخية بتونس ، وتلك العناية تزداد أهمية بوجود حضارة من أقدم الحضارات بالبحر الابيض المتوسط فى قرطاج على بعد بضع كيلومترات من مدينة تونس البلد الاسلامى التقليدى المحافظ على سلامته الى يومنا هذا » .

والتونسيون لم يتمكن الاستعمار الاوربى من العبث بامتلاكهم للغتهم الشريفة ، كما لم يعبث عابث بعد استقلالهم بتمكنهم من اللغة الفرنسية تمكنا جديرا بالاعجاب .

لم البث طويلا فىالقطر التونسى بعد زيارة العاصمة ، بدأت منها طريق العودة الى الوطن مجتازا من الشمال الى الجنوب ثم الى الشرق حتى الحدود الليبية : يومين فى القيروان ويوما فى سوسة ويوما فى صفاقس، ويومين فى قابس .

كم شعرت بانشراح وأنا أشاهد أعمال الاصلاح والترميم واعادة الرونق الى جامعين من أهم الجوامع فى العالم الاسلامى : الزيتونة بتونس ، وسيدى عقبة بالقيروان .

وكلام معاد أن أزجى الثناء العاطر على الطرق السياحية بكافة بلاد المغرب ، هذه شرايين الحياة فى البلد الناهض . ذكرنى ما شهدت من تقدم سياحى بتلك البلاد الشقيقة ما سمعت بمدينة اكس ـ ليه ـ بان عام ١٩٤٦ (أى بعد نحو عامين من تحرير فرنسا) ، وقد أبديت اعجابى بالتجديد الفخم فى أجمل مدن المياه الفرنسية .

اجتمع الخبراء ووضعوا خطة اعادة البلاد الى رونقها

ونشاطها الصناعى والتجارى (لم تكن فرنسا بحاجة الى تخطيط ثقافى ، فالثقافة للشعب الفرنسى هى الماء والهواء فى تخطيط الدكتور طه حسين للتعليم فى مصر) . وجاءت السياحة على رأس « الصناعات » فى كشف الاولويات .

أبديت دهشتى من كلمة « الصناعة » (اندوسترى) وصفا للسياحة ، نعم أن الكلمة الفرنسية تتسع لمعنى المهارة ، والمهنة ، والنشاط ، وتحويل المواد الاولية الى انتاج الثروة ، واذا قلنا الصناعات الزراعية ، واليدوية ، فلماذا لا نقول الصناعة الفندقية ، و « الصناعة السياحية ؟ »

وأضاف محدثى الفرنسى ، وهو مدير أكبر فنادق اكس : عندما تقف البلاد على أقدامها سياحيا تنفق تجارتها ، وتزدهر صناعاتها وكافة مرافقها ، من المتحف الى الملهى ، ومن المواصلات البحرية والهوائية الى المواصلات البرية ، ومن الفنادق والبنسيونات الى مدن المياه المعدنية ، والاماكن الاثرية ، ومن دور الكتب الى المكتبات وأكشاك الصحف . . . الخ .

ويروق لى أن أردد على مسمع أهل بلادى أن تطوير بلاد المغرب ، وبخاصة : تونس والمغرب الاقصى، وضعها فى مقدمة البلاد السياحية فى العالم .

وان تأخر بلادى فى المرفق السياحى يساعد عليه المظهر الزرى للكثير من طرقاتها وشوارعها ، ولغير قليل من معالمها السياحية ، وخاصة الآثار الاسلامية والقبطية ، التى يشتملها اطار من القبح والقذارة والاهمال ، الى درجة تجعل الوصول الى بعضها حماما من التراب ، وسط كيمان القمامة تنشر عبق العفونة ، ولقد سمعت بأن بين ظهرانينا من يصد السائح عن زيارة

مقابر المماليك بالعباسية (مقابر الخلفاء فى الاصطلاح السياحى) ، فمن ذا الذى يعبر الى تحفة قايتباى الرائعة ، او مقبرة اينال ، ومدرسة برقوق ، دون أن يدفع الثمن تقززا وقرفا من الطريق اليها .

هذا كلام قاس لا تستحقه والله بلاد الخير والعطاء والسماحة ، أم الحضارات ، منشئة اغلى وأثمن الآثار القديمة : فرعونية وقبطية واسلامية .

والعجيب أن تفكيرنا السياحى السقيم عندما حاول التطور عقب الحرب العالمية الثانية بدأ من تخيل مريض ، الا وهو : ان السائح بحاجة الى اللهو والحظ والدعارة بعد يوم مرهق من ارتياد الاماكن الاثرية (كمن يخرج بعد الاستماع الى أوبرا « دون جوفانى » لموزار ، لينهى سهرته فى ماخور) ، وان الواجب اعداد الملاهى الليلية ، بنجومها راقصات البطن والارداف .

وكان من أثر هذا التفكير المفلوك ، مفلوت العيار ، أن طريق الحجيج الفنى الى الاهرام وابو الهول ومعابد ومقابر سقارة ، فى طريقه حتما الى أن يعرف « ببرودوى » قاهرة المعز والدولة المملوكية العظمى .

القيروان ..
أم المغرب الرءوم

فى منتصف مارس عام ١٩٣٢ ، أقام القطر التونسي احتفالا بمرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس مدينة القيروان .

وفى احتفالات مولد النبى صلى الله عليه وسلم عام (١٣٧٨ هـ ــ ١٩٥٨ م) ارتقى الرئيس الحبيب بورقيبة المنبر الخشبي العتيق ، القائم الى يمين المحراب بجامع سيدى عقبة منذ أسرة بنى الاغلب ، وألقى خطابا ضافيا ، جمع فيه بين القيروان والمغرب والعروبة ورسالة الاسلام وتحرير الأوطان .

وجاءت فى الخطاب هذه الفقرة : « القيروان مدينة ولدت فيها روح المغرب العربى الكبير ، فحلمت بالجزائر وتلمسان وفاس ، ثم حملت بها ، ثم تمخضت عنها . . . القيروان أم رءوم للمغرب العربى كله » .

اتجه عمرو بن العاص ، بعد الفراغ من فتح مصر ، الى برقة ففتحها فى العام الثانى والعشرين من الهجرة ، وكان عقبة بن نافع الفهرى واحدا من قواد جيش عمرو ، فوجهه لفتح زويلة ، واقامه حاكما عليها .

وبعد استقرار الحكم الأموى ، وجه عمرو ــ فى ولايته الاخيرة لمصر ــ معاوية بن حديج لفتح افريقية (اى القطر التونسى مع بعض ارض طرابلس شرقا ،

وقسنطينة غربا) ، فقام ابن حديج بثلاث غزوات ، قاد الثالثة منها عقبة بن نافع (٥٠ هـ ـ ٦٧١ م) وكان العزم هذه المرة تثبيت حكم الخلافة الاسلامية فى افريقية ، وانشاء حاضرة للمسلمين بالمغرب .

كان جيش عقبة يتألف من نحو عشرة آلاف مقاتل، بينهم عدد كبير من البربر الذين أسلموا ، وعدد من مشاهير التابعين (روى ان كان فبهم ثمانية عشر رجلا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم) ، اخترق الجيش فزان ، وفتح غدامس ، واتجه شمالا ، حتى بلغ موضعا وسطا بين الشاطىء وعلى مبعدة منه ليأمن غارات الروم من البحر ، وبين مرتفعات وصحارى الجنوب وقاية لجيشه من تجريدات البربر(غيرالمسلمين) أقام عقبة فيه أولى المدن الاسلامية بالمغرب ، بعد ما ركز رمحه فى ذلك الموضع وقال : هذا قيروانكم .

والقيروان فى معناها أيام الفتوح : بيت السلاح ، فيقول ابن عبد الحكم عن غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرح لافريقية : ورجع عبد الله الى مصر « ولم يول عليهم أحدا ، ولم يتخذ بها قيروانا » ..

أمر عقبة ببناء المسجد الجامع ، فدار للامارة ، وبنى الناس دورهم حول الجامع واستمرت حركة البناء والعمران فى نشاط كبير . . . « وشرع فى تنظيم الدواوين بالعاصمة الجديدة ، فرغم حب عقبة للفتوحات ولساحة الوغى ، فانه بقى ثلاث سنوات فى القيروان ، كرس فيها جهوده لبناء المدينة ، ليخرج متجها نحو شواطىء المحيط الاطلسى » .

الدكتور الحبيب الجنحانى : «القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية فى المغرب العربى» . تونس ١٩٦٨ .

كانت حيـاتها الأولى صـعبة من جراء عداء البربر بزعامة كسيلة البرنسى شيخ قبيلة الاوربية من جبال اوراس ، وكسيلة هو الذى نصب كمينا لعقبـة فهزم جيش القائد العربى فى عودته من شواطىء البحر المحيط فى موضع قريب من واحة بسكره واستشهد عقبة ودفن حيث قتل (٦٢ هـ - ٦٨٢ م) .

استولى كسيلة على القيروان ، وارتد الجيش الاسلامى الى برقة ، ورابط فيها .

وتقوم حمـلة عربية جـديدة فى حكم عبـد الملك بن مروان ، يقودها زهير بن قيس البلوى ، تنتصر على البربر ، ويسقط زعيم البربر قتيلا . ثم يستشهد زهير ببرقه فى طريق عودة الجيش المنتصر ، وكان لمقتله فى دمشق وقع شديد ، مثلما كان لاستشهاد عقبة بن نافع .

ويولى عبد الملك بن مروان قيادة جيش عرمرم لحسـان ابن النعمان الغسانى ، ربما كان أكبر جحفل وجهـه المشرق لفتوح المغرب ، وهو الجيش الذى قضى على داهية البربر المعروفة « بالـكاهنة » ، وكان نفوذها يمتد من طرابلس حتى طنجة .

واستتب الحكم الاموى لاول مرة فى افريقية ، حين اقتحم حسان مدينة « قرطاج » البيزنطية فهدمها ، ثم أسس بمحلة على مقربة منها تعرف « بترشيش » مدينة تونس .

أما القيروان ، فقد اتسع عمرانها ، وغدت حاضرة عظيمة للدول الاغالبة والفواطم والصنهاجة (بنى زيرى) وقد بلغ من سؤددها أن امتد نفوذها وحكمها الى جنوبى فرنسا ، وبعض جزر البحر المتوسـط ، وحتى بعض مناطق افريقيا السوداء .

بلغت القيروان أوجهـا فى أسرة بنى الاغلب (القرن

التاسع الميلادى) ، وكان قيام هذه الاسرة نقطة تحول فى تاريخ المغرب ، إذ حقق استقلاله عن الخلافة فى المشرق ، والواقع ان هذه الخلافة ، بعد ولاية موسى ابن نصير ، وبعد فتح الاندلس ، لم يتعد دورها ايفاد الولاة ، وتقبل الهدايا والغنائم (ربما كان أهمها الجوارى الحسان) ، واستمرار رجال المغرب الرسميين لبس السواد ، صورة ولاء للعباسيين .

ثم لم يعد للمغرب حاجة الى الولاة ، بعد أن انتشر الاسلام وعم قبائل البربر ، وهم قوم أعزة ، لا يقبلون ضيم الولاة ، ولا عسف جيش عربى محتل .

ولد مؤسس دولة الاغالبة ابراهيم بن الاغلب بن سالم ابن عقال التميمى بالمشرق ، وقدم على المغرب صغيرا مع أسرته ، وتولى فيما بعد امارة الزاب ووصلت الى هارون الرشيد أخبار طيبة عن ولايته ، فما أن طلب ابراهيم ولاية افريقية ، حتى أجابه الرشيد وارسل اليه عهد الولاية عام (١٨٤ هـ — ٨٠٠ م) وابراهيم هو منشىء العباسية دارا للحكم على مبعدة غلوة من القيروان .

وابراهيم ، فيما وصفه ابن عذارى (البيان المغرب) كان فقيها أديبا شاعراً وخطيبا ، الى سلامة فى الرأى وبأس فى الحرب .

توالى حكم الاغالبة نيفا ومائة عام ، وكان ابراهيم أحسنهم سيرة وأرأفهم بالرعية ، نشبت الثورات فى عهده ، فكان يخمدها بالسياسة ، لا بالحسام .

كما كان زيادة الله الاول ألمعهم شخصية ، مع ميل الى العسف والعنف مما أثار عليه قواد الجيش وعماله فى بعض المناطق ، ولكنه صمد فى الحكم سبعة وعشرين عاما ، ودافع عن استقلال افريقية ، ورفض تدخل

المأمون عندما أمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابره .

وزيادة الله هو الآمر بفتح صقلية ، وقد أسند قيادة الجيش الفاتح الى قاضي القيروان العلامة أسد بن الفرات – وقد بلغ السبعين من عمره – فكان القائد العالم بفن القيادة العسكرية ، كما كان العمدة فى علوم الدين .

ومن مآثر زيادة الله الاول ، تولية القضاء للامام سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخى ، المولود بالقيروان ، ومؤلف المدونة التى كانت أول عهد المذهب المالكى بطريقة الاستقراء والاستيضاح ، أملاها دروسا بجامع عقبة ، ويرجع الى سحنون الفضل فى نشر مذهب الامام مالك بالمغرب ، وهو المذهب السائد الى اليوم هناك .

تمنع سحنون فى قبول منصب القضاء تحرجا من تدخل الامير ، ولكن زيادة الله تعهد له باطلاق يده على أهل بيته وأسرته وحاشيته ، بله الرعية .

وكان الامير أبوابراهيم احمد الاغلبى مولعا بالعمارة ، فزاد فى بناء جامع سيدى عقبة ، وأقام الحصون والرباطات فى الثغور وحصنها بالاسوار .

وقصارى القول ، كان عصر بنى الاغلب ، أزهى عصور افريقية وحاضرتها الكبرى ، وقد انشئت فيها جامعة تحمل اسم « بيت الحكمة » ، كما قامت العمارة البحرية التى يحسب حسابها وسط البحر الابيض ، واقيمت المراجل (الصهاريج) والخزانات وأسوار العيون لنقل الماء (وهى « الحنايا » فى لغة المغرب) .

وانتهى حكم بنى الاغلب عند ظهور الشيعة وعجز زيادة الله الثالث ، آخر امرائهم ، عن صد هجوم جيشهم المؤلف من قبائل كتامة (البربرية) .

وصل أبو عبد الله الشيعي من المشرق ، زاعما الانتساب الى الامام على وفاطمة الزهراء ، وأقام بين ظهراني كتامة معلما للصبية ، وناشرا لمذهبه ، ثم أوفد جماعة من كتامة لدعوة المهدى أبي عبيد الى المغرب ، وقد وصل المهدى واستقبل بحفاوة ، واجتمع بفقهاء القيروان وأمرهم بالدعوة له في الجمع والاعياد .

وحينما استتب الامر للمهدى ، نكث أبو عبد الله بعهده ، فلاقى جزاءه مقتولا .. ووجه المهدى أكثر من حملة على مصر دون أن يفلح في فتحها ، انما قيض لحفيده أبي تميم معد ، الملقب بالمعز لدين الله أن يحشد جيشا كبيرا عقد لواءه لجوهر الصقلي سنة ٣٥١هـ فيفتح مصر ، ويؤسس القاهرة استعدادا لاستقبال المعز وأهله ، وقد دخل أبو تميم معد وأمامه موكب من رفات أجداده .

وكان خروج المعز الى مصر نذيرا بانتهاء حكم الفاطميين في المغرب ، فقد تولى الحكم الصنهاجيون من بني زيرى بقيادة رأسهم أبي الفتوح بلكين (بولوجين) يوسف ، وأعظم رجال هذه الاسرة البربرية هو أبو الفتوح المنصور بن بولوجين ، وقد أثر عنه قوله : كان أبي وجدي يأخذان الناس بالسيف ، وآخذهم بالحسنى والاحسان .

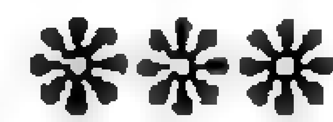
ولم تدم دولة بني زيرى طويلا ، بسبب آخر أمرائها المعز بن باديس ، وقد نبذ الدعاء للخليفة الفاطمي ، وبايع بني العباسي ، ونادى بمذهب مالك .

فدعا المستنصر بالله الفاطمي القبائل العربية رباح وزغبة المقيمين بصعيد مصر للمسير الى افريقية قائلا لهم : « سرحتكم لجواز النيل ، وأعطيتكم ما يملكه ابن باديس العبد الآبق » ، وكانت لوزيره أبي الحسن

اليازورى كلمة فى ابن باديس الصنهاجى : « ألا تعجبون من صبى بربرى مغربى يريد أن يخدع شيخا عربيا .. والله لارمينه بجيش لا أتحمل فيه مشقة » .

ولما رأت قبائل رباح وزغبة ان المراعى كثيرة فى برقة دون رعاة او أغنام ، ارسلت الى القبائل الاخرى بصعيد مصر تدعوها ، فزحف العرب الهلاليه وبنو سليم فى أعداد كالجراد ، على طرابلس ، فالجنوب التونسى ، يحرقون ويهدمون ويقتلون كل من يعترضهم ، واستولوا على أغلب مدن افريقية ، وقضوا على حضارة القيروان ، وأبادوا من لم يهرب من اهلها الى الثغور ، وحطموا صناعاتها التقليدية ونهبوا متاجرها وفنادقها (وكالاتها) واعلاقها .

وبذلك انتهى سؤدد القيروان ، وخاصة بعد انتقال الحكم الى تونس .



كان احساسى عندما زرت القيروان عام ١٩٣٠ ، انها بلد اخنى عليه الدهر وانها لولا صناعة الزرابى (ويطلقونها على افخر أنواع سجادهم) ، ولولا جامع عقبة بن نافع ، سيد جوامع المغرب وما يحيطه من مزارات وزوايا ومساجد أثرية دينا وفنا ، لفابت المدينة المجيدة وانطوت فى دوائر الحدثان .

والقيروان الحديثة كما رأيتها فى رحلة عام ١٩٧١ ، اتسعت خارج السور المحيط بالمدينة العتيقة ، يدلف الزائر الى هذه من باب الشهداء الى نهج على بلهوان ، يجوب دروبها ومعابرها الضيقة واسواقها المغطاة (سوق العطارين ، وسوق السكاجين .. الخ) ، وينتقل بين مزاراتها حتى يبلغ مرتقى الفن المغربى فى مطالعه بالجامع الكبير .

أكثر المدن التونسية التى عرفتها جوداً وسماحة ، كانت ايام الاحتلال الفرنسى اشدها حرصا على دينها ولغتها ، حكى لى أصحابى عام ١٩٣٠ قصة قيروانى واحد رضى بان يتحول مواطنا فرنسيا ، فكان منبوذا من الجميع ، وتوفى قبل زيارتى بزمن قصير . فلم يشيع جنازته متشيع ، ولا رضى حانوتى بحمل نعشه ، ولا فقيه بالقراءه عليه ، واضطر المراقب أو المقيم الفرنسى الى تكليف بعض رجال الجيش المحتل من المسلمين (من غير المغاربة) أن يقوموا باجراءات جنازته ومواراته التراب .

خمسمائة أسرة تعمل نساؤها فى نسيج السجاد بأنواعه على نحو الفى نول ، مدينة هادئة تشعرك بطيب منبتها ، استقبلتنى شابا ، برحابة صدر وكرم حين نزلت بفندقها الوحيد ، وكان بدائيا ، أشبه بفنادق الكوكب الزينبى ، والمشهد الحسينى ، أما فى المرة الاخيرة فقد استقبلنى فندقها الجديد ذو الستين حجرة بحماماتها ، ومعرضها الدائم لتجارة « الزرابى » ، وحديقة لم تبلغ بعد درجة « الفناء » ، ولدارة تمثل اللطف والادب والحضارة .

هذه هى المدينة الاسلامية العريقه التى وصفها رئيس الجمهورية التونسية فى خطابه عام ١٩٥٨ ، بأن « روح المغرب العربى ولدت فيها » ، أشهر مقدساتها جامع سيدى عقبة ، أقدم وأوسع وأول جامع أنشىء فى المغرب ، صومعته (مئذنته) النموذج الاول للصومعات المغربية والاندلسية ، ان بذتها « الكتبية » و « برج حسان » و « الخيرالدا » رشاقة ورقة وفنا ، فقد امتازت منارة القيروان عليها بالعتاقة والرسوخ والضخامة العابسة ، ترتفع طوابقها الثلاثة المربعة الى

نيف وثلاثين متراً ، بارتفاع ١٩ للطابق الاول ، وخمسة للطابق الثانى ، وثمانية أمتار للطابق الثالث ، يتضايق كل طابق عن سابقه ، أفاريز كل منها تشبه أسنان الاسوار (فى المساجد والرباطات والقصبات) والنسبة بين ارتفاع القاعدة الفسيحة ، واستدقاق الطابق الاعلى تضفى على هذه الصومعة مظهر القوة والجلال ، بينما القبة المضلعة الصغيرة التى تغطى الطابق الاعلى ذات أثر سحرى فى تخفيف صرامة هذه المئذنة المشهورة

ابعاد الجامع نحو السبعين مترا فى العرض والمائة والعشرين فى الطول ، صحنه الواسع مكشوف ، وتعلو بيت الصلاة المسقوف خمس قباب مضلعة ، أهمها وأجملها القبة فوق المحراب ، موقعها وصنعتها من خصائص الفن المغربى بتونس ، تتحول من الشكل المربع فى قاعدتها ، الى الاستدارة بواسطة تجويفات على شكل أصداف المحار ، وتحمل رقبة القبة ذات النوافذ والقبة مضلعة من الداخل والخارج ، مظهرها الخارجى اشبه بأضلاع القاوون (السنطاوى) .

يقوم بيت الصلاة على أساطين منقولة من المعابد القديمة ، ينيف عددها على المائة ، تعلوها باكيات ، ويتعامد على ممراتها رواق القبلة ، أى ايوان المحراب الذى تزين جانبيه ألواح الزليج ذى البريق المعدنى (بلاطات القاشانى) ، استجلبت من بغداد ، أو هى من صنع مغربى درس فى بغداد ، أما قاع المحراب فتحليه الواح من المرمر ، كل منها يختلف نقشه عن اخوانه .

والمنبر تحفة رائعة من خشب الساج الهندى ، موضعه الى يمين المحراب ، انشأه ابراهيم بن الاغلب ، شاهدته فى زيارتى الاخيرة منقولا من مكانه ، وموضوعا فى ركن أمين بسبب ما يجرى فى سقف المسجد من

ترميم واصلاحات هامة .

والمسجد الجدير بالزيارة بعد الجامع الكبير ، هو المعروف بجامع ثلاثة البيبان ، انشأه الفقيه محمد بن حيزون المعافرى المهاجر من قرطبة (٢٥٢ هـ ــ ٨٦٦ م) ثم زاوية سيدى الصاحب ، وهو أبو زمعة البلوى ، من الصحابة المتوفى سنة ٣٤ من الهجرة ، دفن بالقيروان، ومعه شعرات من شعر الرسول ، لا يعرف تاريخ انشاء مقامه القديم (القرن الثالث الهجرى) ، انما اقام الزاوية عام ١٠٨٥ هـ حمودة باشا المرادى .

عند أقدام الوطن الجريح

بم اصف شعورى ، وقد اجتزت الحدود التونسية وانطلقت فى الفضاء والفراغ الليبى الرائع ؟

ليلتان في طرابلس وليلة فى كل من سيرتا وطبرق .. لم تكن محلة سيرتا غير محط تقسمة الطريق الطويل بين طرابلس وبنغازى (٤٧٥ + ٥٧٠ ك . م) ، وليلتين ببنغازى ، لنتمكن من زيارة طولوميتا وقيرينة (شحات) أهم أثرين قديمين فى برقة ، تحدثت عنهما فى فصل سابق ، وليلة فى طبرق ، تأهبا لاجتياز الحدود بين برج مساعد والسلوم .. ومن هذه رأسا الى مرسى مطروح

كنت أنهب الطريق نهب الجواد العائد الى طوالته ، بلغت سرعات ما أظننى عرفتها على الارض من قبل ، شجعتنى عليها طرق ليبيا العجيبة : شريط اسفلتى وسط رمال تمتد الى مدى البصر ، لم يفترشها البساط السندسى الا فى « الجبل الاخضر » .

معرفتى بتاريخ ليبيا الاسلامى ضئيلة، بعض معلومات عن الفتح العربى ورد ذكرها فى بعض فصول هذه الرحلة . امتد ملك الموحدين اليها ، واتسعت رقعة سؤددهم فى حكم عبد المؤمن ، حتى بلغوا حدود مصر ، وكان من الجائز ان يحتلوها ، لولا دولة البطل الاسلامى صلاح الدين ، الذى قضى ربع القرن لا يكاد ينزل عن فرسه ،

بيـد انى فى طرابلس ، وأمام درنة ، وفى بنغازى ، كنت أستعيد ذكرياتى من سـنوات الوعى الاولى وأنا طالب بالمرحلة الابتدائية (١٩١٢) ، عندما نزل الطليان بشواطىء ليبيـا ، كنا نسمع فى ذلك الوقت بحرب الاتراك ، دفاعا عن ملكهم فى طرابلس الغرب وبرقة ، وببطولة عزيز المصرى ، وكان ضابطا فى الجيش العثمانى حينذاك ، لم تكن آخر مرة فى حياتى أسمع فيها الطبل الصحفى والزمر الاعلامى عن انتصـار العثمانيين على الطليان ، فأفرح مع الفارحين .

ثم يتضح لنا جميعا بأن العدو استولى على « بلاد الغرب » ، وأخرج عنها جيوش البادشاه ، ظل الله على الارض ، وحتى الحدث الذى كنت لم يفقه حكاية ظل الله هذه ، لان تربيته الدينية قومت فى نفسه الايمان بأن الله جل وعلا عن التمثيل ، بل التجسيد .

وسـمعت فى وعى الشبـاب بطولة عمر المختار ، وجهاده الباسل ضـد الفاشستية الفاشمـة ، وكيف استشهد أسيرا : القى به حيا من حالق طائرة حربية .

واستعدت بقراءاتى الشـذرية ان ليبيا كانت أول بلاد تحررت ، وقامت فيها حكومة مستقلة ، بفضـل الامم المتحدة ، حينما قررت جمعيتها العمومية فى نوفمبر عام ١٩٤٩ ، أن تسترد ليبيا حريتها كاملة فى ينـاير عام ١٩٥٢ ، وانها حتى ذلك التاريخ تدار بواسـطة مندوب الامم المتحدة .. كان الهولندى ادريان بيلت ، السكرتير العام المساعد ، الى جانب مجلس استشارى يتألف من مندوبين عن مصر وفرنسا وايطاليا والباكستان وبريطانيـا والولايات المتحدة الامريكية ، وممثلين عن اقسام ليبيا الثلاثة : برقة ، وطرابلس ، وفزان ، وعن الاقليات أجنبية (٤٦٠٠٠ ايطالى و ٢٢٠٠٠ يهودى) .

وذكرت تاريخ اكتشاف البترول فى ليبيـا ، سنة ١٩٥٩ .

خرجت من ليبيـا برأى بدهى ، وهو ان الشقيقة العزيزة فى مسيس الحاجة الى مضـاعفة عدد سكانها دون توان ، حتى تتمكن من اسـتغلال أرضها وسمائها وبحرها ، بما يتفق مع الثروة التى هبطت عليهـا من السماء نعمة ، وتفجرت من بطن أرضها ذهبا أسود ، على شريطة أن تبادر بارسال الآلاف من بعوث تعليمية الى الجامعات العربية ، فالجامعات والمعاهد الاوربيـة والامريكية ، فقـد يغنى المـال عن الجمال ، ولـكنه لا يستغنى عن العقل الباحث المبدع ، ومن الخطل أن تقتصر البعثات على العلوم والتكنولوجيا والاقتصاديات ، فالروح لا تربى بالعلم وحده ، وانما بتنمية الفكر ، والاحساس بالفلسفة والتاريخ والادب والفن . فالحضارة روح وعقل وشعور ، قبل أن تكون آلات وأجهزة ومصانع ومنشآت .. خطر الناحية المـادية فى الحضـارة انها تشترى بالمال ، فاذا لم تدعم بالفكر (علما بحثا وفلسـفة) وبالفن والادب ، كانت وبالا على أهلها ، وأى وبال ..

يجب أن نذكر بلاد النفط فى منطقتنا بأن النفط كنز يفنى ، وأروع مثال حضارى لنتاج العقل والاحســاس ، هو سويسرا التى لا تملك سوى الجبال ، ومنحدرات المياه والبحيرات ، والمراعى الجبلية ، ومع ذلك استطاعت أن تنشىء ثروتها الطائلة على ما يحققه العقل المدبر ، والادراك العملى ، والاحساس الفنى .

هذا رأى عابر طريق ، لايزعم له قيمة ، ولا يدعى له اصالة ، ربما كان من الخير أن لا أصرح به ، لولا طيب النية ، والاحساس بآصرة الجوار والقربى ، وما استجد بين مصر وليبيا من علائق وثيقة .

عبرت ليبيــا ، لا أكاد الوى على شيء ، ســوى الاحساس بقرب الوطن . بلغت برج مساعد فالسلوم ، بعد مئات الفراسخ فوقطرق ليبيا الفسيحة المستوية ، لا يعوق المسرع فيها عابر طريق ، انسانا أو حيوانا .

وما أن غادرت الســلوم ، حتى بدأ عذاب المسالك الوعرة ، والطرق المبهدلة التى تنتظر التمهيد والانشاء من جديد ، وقيل لى فى جمرك الســلوم بأن فرج الله قريب .

ويبــدو ان الطريق تحسن كثيرا كلما اقتربنا من مطروح ، كان الليــل قد ارخى سدوله ، فلو لم يكن الطريق طيبا نسبيا لما استطعت مواصلة السير فى الظلام بسرعة لا بأس بها .

تذكرت اننى لم أخترق طريق السلوم ـ مطروح من قبل، فقد دخلت السلوم من البحر فى رحلات الثلاثينات على السفينة العلمية « مباحث » لدراسة منابت الاسفنج المصرى ، والـكشف عن مناطق صيد الاسماك ، أما طريق مطروح ـ الاسكندرية ، فقد خبرته أكثر من مرة ، وعرفت حلوه ومره على مدى أربعين عاما .. اجتزته أول مرة لدى عودتى من واحة سيوة بسيارة فورد مكشوفة ذات اطــارات بالون ، حتى فوكة أو الضبعة ، ومنها بالقطار الى الاسكندرية عام ١٩٣٢ .

اننى أعرف شــواطئنا الغربية ، والشرقية (البحـر الاحمر) من البحر ، أكثر مما عرفتها فوق اليابسة ، وكنت أحس بأن مستقبلا ســياحيا باهرا ينتظرنا ، بل ذهب بى الامل فى ذلك الزمان الهادىء بأن مينــاء هاما بمطروح يقرب الســفر بيننا وبين أوربا بطريقــة سحرية ، وان بالامكان التوسع الـكبير فى غرس أشجار الزيتون بمثل ما جرى فى تونس . هذا ومشروع منخفض

القطارة ليس خيالا ، وتحقيقه دان قريب اذا ما انقشعت الغمة وعاد السلام الى أرض الخير والعطاء .

ثم كان لقائي بحواضر الوطن ، وقد سئمت الصحارى ، ففضلت العودة الى القاهرة بالطريق الزراعى ، لان بهجة البساط السندسى الذى يفترش الدلتا تبث فى النفس راحة وهناء ، فيهما صفة الدوام، لا يضعفهما الاعتياد ، وخاصة لدى ابن المدينة الذى لم يولد وفى فمه ملعقة من ذهب ، حتى ولا من صفيح .

كم هو وطن جدير بأبنائه ، وارجو أن تكون الاجيال الجديدة جديرة بعظمته عبر القرون الخالية .

واذا كانت رحلتى قد بدأت من باريس وبلادى تعانى أزمة حادة ، فقد انتهت الازمة على خير وانا أخترق اسبانيا ، وكانت تصلنى تباعا أخبار الوطن يستقبل عهدا مستبشرا متفائلا .

والتفاؤل لا يكفى لما اصاب شرف البلاد من اذى ، مما يخيم على قلوب المصريين كابوسا مزعجا آناء الليل وأطراف النهار .. فما دام شطر الوطن محتلا ــ رباه لا أتصور المحتل يواجهنا على الضفة الأخرى من القناة ، عليه اللعنة ، وعليها اللعنة تلك القناة التى جلبت على مصر الرزايا من يوم حفرها ــ اقول : مادام شطر من الوطن محتلا ، حتى لو كان شبرا مربعا تفرك رماله اقدام الغاصب ، وبعد أن شاهدت الشمال الافريقى ينعم بالرخاء والسلام ، وهدوء سريرة شعوبه ، فان فرحة اللقاء تعكرها الحسرة الوخازة ، والحزن الدفين .

حزن على وفاة أمى سنة الهزيمة ، وبعدها بشهر ونصف . ياما رددت فى نفسى : ماتت أمى ومات وطنى فى ظرف شهرين .. كان عام ١٩٦٧ فى أرجاء نفسى سنة الكرب والبلاء ، عام كربلاء الحسين الشهيد .

عدت وما فتىء الوطن يحثـو التراب فوق رأسه حزنا على ما ضاع من ارضـه ، ومن استشهد من شبابه ، ومن شتت من كرام أهله .

متى يارب ترفع عن كاهل وطنى الملمات ، أنت العلى القدير ..

هبنا من لدنك السلام « دونا نوبس باسم » .

القاهرة ١٩٧٢

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL

هذا الكتاب

عرف المؤلف رحالة فى المكان والزمان ، بكتبه : سندباد عصرى » و « سندباد الى الغرب » ، و « حديث السندباد القديم » ، و « سندباد فى رحلة الحياة » ، و « سندباد مصرى » .. رحلات المكان حول بحر الهند ، وفى الخليج العربى ، وفى بلاد الحضارة الغربية ورحلات الزمان تصعيد فى تاريخ مصر كله ، وعودة الى ... الملاحة العربية فى البحار الشرقية ، ومصادر رحلات السندباد السبع ، فى كتب الجغرافيا العربية والعجائب .

وهذا الكتاب رحلة سندبادية جديدة ، قام بها كاتبها من باريس بالسيارة يوم ١٧ مايو ١٩٧١ وبلغ القاهرة يوم اول يولية .. اخترق فرنسا ، واسبانيا ، وبلاد المغرب الاقصى ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، فى ستة اسابيع ، قطعت فيها السيارة عشرة الاف كيلو متر . يحدثنا الرحالة عن انطباعاته من الاندلس الاسلامية ، وبلاد المغرب الكبير ، واثر حضارة المشارقة فى حضارة الاندلس ، والعلاقات الحضارية بين الاندلسية والمغاربة ، والدول التى تعاقبت على حكم بلاد المغرب ، من عرب وبربر .

صور ... رائعة ، لرحالة عرف بحرصه على رؤية الغابة قبل ... ارها .. لا يصور حاضر بلاد الا امام خلفية مضيئة او مظلمة ... تاريخها ..

١٠ قروش